سلسلة الحي

2020
1.1.2020

غونزالو تافاريس

ترجمة: مهدي سليمان

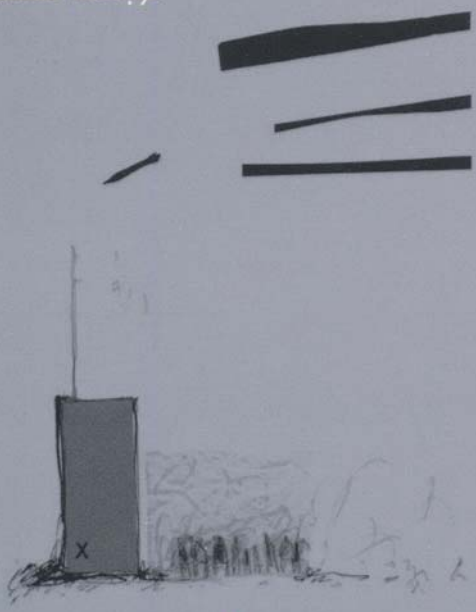

السيد كراوس

Gonçalo M. Tavares

The Neighborhood

O Bairro, O Senhor Kraus

السيد كراوس

غونزالو تافاريس

من سلسلة "الحي"

رواية قصيرة

ترجمة

مهدي سليمان

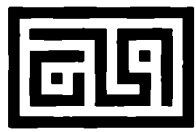

2018

السيد كراوس

غونزالو تافاريس

من سلسلة "الحي"

السيد كراوس / رواية قصيرة
غونزالو تافاريس

ترجمة: مهدي سليمان
تحرير: وليد الشايجي

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- أكتوبر 2018
978 - 9921 - 712 - 08 - 7 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2018/1113

Novella by: Gonçalo M. Tavares
O Bairro (Mr. Kraus, The Neighborhood)
Published October 2012
By Texas Tech University Press
Translated From Portuguese by:
Roopanjali Roy
Translated from English by:
Mahdi A. Sulaiman
Edited by:
Waleed K. Al-Shaiji

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

© Alkhan Publishing & Distribution
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

غادر السيد كراوس مقرّ الجريدة بمزاج هانئ. كان يعلم أنه في هذه الأيام الحديثة المسرعة وكأنَّها في سباق (لا يدري أهو سباق إلى الوراء أم إلى الجانبين)، فإنَّ الطريقة الموضوعية الوحيدة للتعليق على السياسة إنما تكون بالسخرية. طيِّب، بعد أن وظَّفَتْه الجريدة ليكتب سرديّاتٍ إخبارية تؤرِّخ اللأحداث الكبرى التي تجري في البلد، قفل السيد كراوس راجعًا إلى البيت مع نهاية وقت العصر، مدندنًا إحدى أغاني الأطفال الرتيبة اللحن، وذات الجمل المكرَّرة؛ أغنيةٌ انفجرت فجأةً في باله نتيجة لبعض التجلِّيات والخواطر الداخلية المعقَّدة التي لم تكن واضحة قطّ.

أرسل السيد كراوس أولى سرديّاته الإخبارية إلى الجريدة.

ذات ظهيرة في حياة الزعيم

1

كان الزعيم يمشي في مكتبه في هدوء من جهة لأخرى بخطوات كبيرة حول طاولته، مسلّيًا نفسه بين الحين والآخر بنتف شعرة من فروة رأسه نتفًا عنيفًا. كان في الوقت نفسه يضبط زفرات ألمه، في ما يشبه اللعبة التي يلعبها مع نفسه، لعبة صنَّفها بنفسه تحت مسمّى «شيء كما التسلية». فجأةً، عمَّت فوضى عارمة جدًا في الطابق السفلي.

في الواقع، بالنسبة للزعيم، كان كل امتعاضه ناجمًا عن «ذلك الطابق السفلي»؛ كانت هذه العبارة تقريبًا تتردّد في باله كأنها مرسوم تشريعي.

حدَّث الزعيم نفسه قائلًا:

- يجب عليَّ أن أهدم القسم السفلي من البناء؛ ما منْ حلّ آخر.

في الواقع، كانت الصرخات الرهيبة تنبعث من مصدرها المعتاد. اقتربت الصرخات رويدًا رويدًا.

شدَّ الزعيم كتفيه، منتظرًا.

قال في نفسه:

- عندما يدنو الخطر، يواجهه القادة بأكتاف مشدودة ورأسٍ

مرفوع.

ولكنه ما لبث أن انحنى من فوره ليلتقط قطعة نقدية معدنية صغيرة سقطت من جيبه. شدَّ كتفيه مرة أخرى، ووقف منتصب القامة.

جسده مستقيم، وقفته جامدة، ورأسه مرفوع، وكأنَّه لم يكن في العالم أي قطعة نقدية أخرى على الأرض ليلتقطها. وقف وقوفًا ذا استقامة كاملة؛ الوقفة التي يجدر ببني البشر أن يقفوها.

في غضون ذلك بدأت الصرخات تتبلور بشكل أصوات معينة.

ثم ما لبثت أن اكتسبت الصرخات أسوأ شكل يمكن أن تصيره على الإطلاق؛ لم تكن تلك الصرخات سوى أصوات مساعِدَيه. لمْ يكونا ليتركاه وشأنه قطّ.

كان الزعيم قد تعب من اليأس الذي يتسبّب به هذان الآدميان له. يحقّ له أن ييأس من تلقاء ذاته، كأي زعيم حقيقي. ولكن ها هما يأتيان مرة أخرى؛ المساعدان بشحمهما ولحمهما.

2

أقفل بـاب مكتبه من الداخـل. فيما بعد، كان بإمكانه التـذرُّع دائمًا بأنه كان في اجتمـاع مهمّ.

طالما أنه هو الزعيم، ومن ثمَّ فهو يمثِّل هرمَ السلطة، أليس من الضروري له أن يفكِّر وحيدًا مع نفسه، ولنفسه؟

في الواقع، استطاع حتى تلك اللحظة أن يعقد أكثر الاجتماعات أهمية بمفرده.

ولكي يبدوَ مُقْنعًا أكثر، عندما كان يسوِّغ إغلاقه للباب، كان يبدأ بالحديث مع نفسه، وكأنه كان في نقاش حاد مع إحدى بنات أفكاره التي ولدت قبل مدة لا بأس بها.

لم يكن معتادًا على مخالفة نفسه، لذا كانت أولى الكلمات التي ينطق بها:

- برافو! يا لَها من فكرة رائعة!

3

في هذه اللحظة كان المساعدان قد اقتربا من مكتبه.

كانا يتراكضان وهما يصرخان، خائفَيْن كانا.

لا بد أنَّ خطبًا جَلَلًا قد حصل.

وقف الزعيم منتصب القامة، رفع ذراعه وأشار بسبَّابته نحو السماء.

كان يحب تلك الحركة التي قام بها، شعَر وكأنَّه كان يرشد الناس للطريق الذي عليهم أن يسلكوه.

لم يكن في الطابق الذي يعلو مكتبَه سوى قاعات خاوية على عروشها، وبعض دورات المياه.

- اصعد إلى الطابق العلوي، أنت بحاجة للصعود إلى الطابق العلوي.

بدا أن لسان حاله يقول له ذلك، مع تلك الإشارة بذراعه الممدودة وسبَّابته المرفوعة نحو السماء.

ونظرًا لأنه لم يكن قادرًا على نسيان الشعب وإخراجه من تفكيره في الدقائق القليلة الماضية، فقد شعر بالإعجاب بنفسه.

قبل أن يصبح زعيمًا، لم يفكِّر قطّ، لا بل لم يفكِّر إطلاقًا، بالشعب، أمّا الآن، فهو غارق حتى أذنيه في أفكاره التي تتنازعه حوله، حول الشعب (الشعب الذي لم يلتقيه قطّ قبل ذلك).

تمتم مع نفسه:

- يمكن تعلُّم ذلك.

مثل تقنية جديدة في الوثب العالي؛ يمكن تعلُّم ذلك.

ولكنهما كانا قد وصلا مكتبه، كانا على الجانب الآخر من

الباب، وهما يطرقان على الباب الذي يفضي إلى مكتبه.

صرخ المساعدان بهياج، من الجانب الآخر للباب:

- الخبراء الاقتصاديون! الخبراء الاقتصاديون قادمون إلى هنا!

4

سألَهما:

- لم كلُّ هذه الجلَبة؟ كنت أمارس عادتي في اليأس، ولكن بهدوء. ما الذي جاء بكما الآن إلى مكتبي...؟

قال المساعدان بصوت واحد، ونفَسُهما يكاد ينقطع:

- يقول الخبراء الاقتصاديون بأنه من الضروري خفض النفقات بدرجة أكبر من السابق!

- أي نفقات؟

- نفقات الفئات الأخرى من الشعب.

قال الزعيم متعجّبًا، شاعرًا بالارتياح:

- آه، نفقات الفئات الأخرى من الشعب!

- نعم، حضرة الزعيم، ولكن لا يمكننا أن نتخلّى عن تأهّبنا وحذرنا. لأنه عندما يقول الخبراء الاقتصاديون (لفظا عبارة «الخبراء الاقتصاديون» بطريقة توحي بأن مجرَّد البوح بها بصوت

مرتفع يجعل الخوف يسري في عروقهما) بأنه من الضروري أن نخفِّض نفقات الفئات الأخرى من الشعب فإنهم ينظرون إلينا. في الواقع، هم يحدِّقون بنا عندما يتفوّهون بذلك.

قال الزعيم متعجّبًا، معبرًّا عن سخطه:

- ينظرون إلينا نحن؟! ولكننا لسنا الفئات الأخرى من الشعب!

لاذ الجميع بالصمت فجأة، جميعُهم في الوقت نفسه، بدا الأمر وكأنهم قد خططوا لذلك الصمت سلفًا.

ألقى التوتر حبائلَه حول الزعيم.

قوَّم وضعية ربطة عنقه، وعدَّل تعديلًا خفيفًا وضعية الحزام الذي كان يثبِّت بنطاله.

قوَّم المساعد الأول من فوره وضعيه ربطة عنقه، وعدَّل تعديلًا خفيفًا وضعية الحزام الذي كان يثبِّت بنطاله.

وفي حركة متعاقبة وسريعة، قوَّم المساعد الثاني وضعيه ربطة عنقه، وعدَّل تعديلًا خفيفًا وضعية الحزام الذي كان يثبِّت بنطاله، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا؛ كان قد نسي أصلًا أن يرتدي الحزام.

أطرق ببصره خجلًا من نفسه، ولكن الزعيم لم يكن ينظر إلى أي شيء، ولم يكن يصغي لأي شيء.

تمتم الزعيم قائلًا:

- هذه المسألة المتعلقة بالفئات الأخرى من الشعب؛ هذه المسألة المتعلقة بالفئات الأخرى من الشعب طالما قضَّت مضجعي.

تمتم المساعد الأول، وهو غير متأكد مما كان ينبغي له أن يقول:

- نعم، الفئات الأخرى من الشعب.

قال المساعد الثاني متعجبًا:

- الفئات الأخرى من الشعب فئات مذهلة!

قال ذلك فجأة، وكأنه يكتشف من فوره جوابًا لمسألة حسابية.

قال الزعيم، الذي بدأ باستعادة ضبط النفس رويدًا رويدًا:

- هدئ من روعك، أيها السيد المساعد. لا تبالغ في الأمر! الفئات الأخرى من الشعب ضرورية! نعم ضرورية! عِ هذه الكلمة جيدًا. تلك الفئات ليست مذهلة. ذلك موضوع آخر.

ثم فتح النافذة وحاول أن يهدئ من روعه تدريجيًا عن طريق حساب عدد أفراد فئات الشعب الضروريين الذين كانوا يذرعون الشارع من جهة لأخرى.

- هذا ضروري! وذاك ضروري!

كرَّر ذلك بصوت مرتفع، مديرًا ظهره للمساعدَين.

غريزة

كان الزعيم يمقت الجغرافيا والاقتصاد والأدب والكيمياء وعلم الاجتماع والهندسة والرياضيات والفيزياء، وشتَّى العلوم التي ابتدعت بعد مجيء المسيح. الشيء الوحيد الذي كان يحبُّه هو الغريزة.

- الغريزة، أتفهم ذلك!

رأى المساعد بأن زعيمه لم يكن يريده أن يفهم. لذلك ما كان منه إلا أن هزَّ رأسه.

- ألا تعرف ما هي الغريزة؟

هزَّ المساعد رأسه مرةً أخرى، هزًا أشدَّ من الهزَّة السابقة. فقد كان مساعدًا طيّبًا.

أحبَّ الزعيم الشرح، شرحَ أيّ شيء، حتى لو كان غيرَ قابل للشرح، وكان المساعدان يحبّان الزعيم. لم يكن لديه أيُّ فرصة أخرى. ولذلك انفلت نحو المساعدَين كثورٍ من تلك الثيرانِ التي نراها في طقوسٍ شعبيةٍ محدّدة. انفلت كانفلات الثور الذي يهاجم رجالًا نالهم التعبُ وتخلَّفوا عن ركب الهاربين من النطح.

قال الزعيم، الذي كان مسترسلًا استرسالًا كاملًا في طروحاته:

- الغريزة، الغريزة هي الشيءُ الذي يولد هنا.

قال ذلك وهو يشير إلى بطنه، وتابع قائلًا:

- ثم ترتفع، وترتفع، وترتفع (مرفقًا كلماته بالإشارات المناسبة) حتى تصل إلى هنا!

كانت يده اليمنى تمسُّك بحنجرته عندما قال: هنا، أتفهم ذلك!

قال المساعد دهشًا، وكأن أحدًا قد باح له من فوره بسرٍّ عمره ألفا عام:

- حتى تصل إلى حنجرتك!

قال الزعيم محدِّدًا جوابَه أكثر (وقد حدَّده تحديدًا ممتازًا):

- بل إنَّها تتجاوز الحنجرة. الغريزة ترتفع حتى تصل إلى مفرداتي الصادرة من فمي. لذا تبدو كلماتي وكأنَّها محكومة بقوة غير عادية.

قال المساعد:

- قوة لا يستطيعُ الذكاء العادي أن يفهم كنهها.

- بالضبط. لن يفهمها الذكاء العادي ولا غير العادي؛ فالذكاء ليس الوسيلة القادرة على فهم خطاباتي. فأنا أتكلّم للشعب!

تمتم المساعد الأول بصوت ناعم:

- ذلك هو الاتجاه المثالي الذي تسلكُه الكلماتُ.

البرْد

في الصباح، أعطَيا الزعيم خريطة للبلد، مطوية طيًّا أنيقًا، وملوَّنة، بحيث يمكن للزعيم أن يتوقّف عن الخلط بين الشمال والجنوب، أو بين الساحل والداخل، أو بين مدينة كبيرة وقرية صغيرة، أو بين قلعة ومركز تسوق تجاري حديث، أو بين عين ماء وحانة خمر. باختصار، أعطيا الزعيم خريطة للبلد حتى يتسنّى له الكفّ عن خلط كل شيء بنقيضه.

ولكنّ الزعيم، وهو شارد الذهن، وضع الخريطة في جيبه، ومع حلول منتصف النهار كان قد نال منها وهو يستخدمها ليمْخُطَ بها أنفه.

احتجّ قائلًا:

- يا لَهذا المنديل اللعين الذي أعطوني إياه! سيكسر أنفي!

كان المساعدان -اللذان كانا يفيضان روحًا وطنيةً عندما يكونان على رؤوس الأشهاد، وفي هذه الحالة كانا هما الأشهاد؛ كل منهما شاهدٌ على الآخر- يرتجفان من البرد، كان الرجَفَان يسري على طول عموديهما الفقريين؛ من قمّة رأسيهما حتى أخمص قدميهما؛ ليس ذلك فحسب، بل حتى إنه لم يكن للقفَّازات، أو المعطف الطويل أو الوشاح أن يوقف ارتجافهما.

وبصرف النظر عن القفّازات والمعطف والوشاح؛ كانت الحرارة تحت الصفر ببضع درجات.

- حضرة الزعيم! هذا ليس منديلًا؛ إنها خريطة البلاد!

دهش الزعيم قائلًا:

- آه، هذا هو السبب إذًا في أنها خشنة!

احتج الزعيم، هزَّ كتفيه، ونظرًا؛ لأنه حصل ما حصل، تابع التمخُّط بالخريطة.

اقترح أحد المساعدَين:

- مخِّط أنفك على طول الساحل. فتلك أفضل الطرق لكي تتجنّب إلحاق الأذى بأنفك. الساحل أكثر نعومة من غيره من المناطق.

توقَّف الزعيم فجأة وحملق بنظراته نحو مساعده.

كان الجوُّ السائد مؤثرًا بعض الشيء؛ يا لَهذا الاهتمام المؤثر الذي أبداه المساعد بصحة زعيمه. دون أن ينبس ببنت شفة، انحنى الزعيم وطبع قبلةً صغيرة، ولكنها عظيمةُ التأثير، على رأس مساعده الوفي.

- لقد باشرتُ بقراءة سردياتك الإخبارية، سيد كراوس. إنَّ العالمَ مليءٌ بالفرح، أليس كذلك؟

ابتسم السيد كراوس. شكَره، ثم ألقى عليه تحية الوداع.

الزعيم الذي كان يحبُّ الحركة

1

كان الزعيم يحب التغيير؛ لأنه لم يحبّ أن يقف مكتوفَ الأيدي دون حراك. كما أنه لم يكن يحبّ أن يقف مكتوف الأيدي؛ لأنه كان يحبّ التغيير. كانت تلك آراؤه حول الموضوع. كان عنده آراءٌ أخرى، ولكن حول مسائلَ أخرى. أما فيما يخصُّ الوقوفُ مكتوف الأيدي والتحرّك، فكانت تلك وجهات نظره؛ كان عددُهما اثنتين.

حاول المناوبة فيما بينهما. كان يشعر بالفخر أحيانًا بإحداهما، ويشعر أحيانًا بالفخر بوجهة النظر الأخرى. وكان يقول:

- يُسمّى ذلك بالخاصة التبديلية للغة. فكما أنَّ اثنين زائد ثلاثة يساوي ثلاثة زائد اثنين، فعدم حب السكون يساوي حبّ الحركة. بل اسمحا لي أنْ أزيدكما من الشعر بيتًا: إن حبَّ الحركة يساوي عدم حب السكون. لا أعرف فيما إذا كنتما تفهمان ما أقول؟

فهم المساعدان ما قاله.

قال الزعيم:

- إذًا، أنت! (مشيرًا لأحدهما)

- أنا؟!

- نعم، أنت!

- هل فعلتُ شيئًا؟

- لا، لم تفعل شيء. وهنا تكمن المشكلة. يجب أن نتحرّك. لا يمكننا البقاءُ ساكنين. هل شرحتُ لكَ سابقًا مسألة الخاصة التبديلية؟

- نعم، حضرة الزعيم. وقد أعجبتْنا بالفعل؛ إنها تتعلّق بالرقم خمسة؛ ثلاثة زائد اثنان يساوي خمسة.

- بالنظر إلى المعطيات، فأنت لم تفهمها. النتائج ليست مهمّة. الأهم منها هو الحركة. أفهمتما ذلك؟

فهم مساعدا الزعيم ما قاله. فهما للمرّة الثانية.

- حسنًا جدًّا. والآن، أنتما كلاكما، بينما أنتما جالسان، ستطرقان بأقدامكما على الأرض، عدة مرات، إلى أنْ آمركما بالتوقّف. لا تتوقّفا حتى موعد الانتخابات!

- يا لَها من فكرة رائعة، حضرة الزعيم.

2

بينما ظلَّا جالسين، كان المساعدان قد أمضيا حتى هذه اللحظة عدة أيام وهما يطرقان بأقدامهما على الأرض. اختفا نعلا حذائيهما اختفاءً بطيئًا، وداخل جواربهما التي تبخَّر قماشهما تبخرًا

عمليًا، احترقتْ أقدامهما، وملأتها الجروح العديدة وكأنهما كانا يتلظّيان بالنار. على كل حال، لم تفارق الابتسامة العريضة وجهي المساعدَين ولو للحظة واحدة. كان الزعيم قد قال لهما:

- الحركة ضرورية، ليس سوى الحركة! اطرقا الأرض حتى موعد الانتخابات.

صرخ الزعيم فجأةً وهو يرفع ذراعه:

- توقّفا! لقد تذكّرت للتو بأنه يمكننا القيام بحركة تنطوي على تغيير في المكان.

دهش المساعدان فاغري الأفواه:

- مع تغيير في المكان!

- مع تغيير في المكان، كيف؟

- حضرة الزعيم، ولكن أليس من شأن ذلك أن يكون سريعًا؟

قال الزعيم:

- إن أعداءنا لا يتوقّعون إحداث شرخ مفاجئ. يجب علينا بين الفينة والأخرى أن نغيِّر أهدافَنا وخطّة عملنا تغييرًا كاملًا.

- ولكنها الساعة الرابعة عصرًا.

- حان وقت النهوض.

- فكرة رائعة، حضرة الزعيم.

- حسنًا. هذا ما ظننته. أخبراني عن رأيكما بالحلّ الذي

سأقترحه عليكما. ستتبادلان الكراسي. سيذهب السيد المساعد إلى كرسي السيد المساعد، وسيذهب السيد المساعد إلى كرسي السيد المساعد.

- حضرة الزعيم، لم أفهم بالضبط كيف سيذ...؟

- وأنا لم أفهم. تمتم المساعد الآخر.

- لكي أوضح لكما الأمر بطريقة أفضل، سيذهب السيد المساعد الذي على يميني إلى كرسي المساعد الذي على يساري. وسيذهب السيد المساعد الذي على يساري إلى كرسي المساعد الذي على يميني، في اللحظة ذاتها.

- في اللحظة ذاتها؟

- نعم، والعكس بالعكس.

- العكس بالعكس؟

- بالضبط. ثم تبقيان في الكرسي الجديد لمدة ساعة، بل ساعة ونصف...

- حسنًا.

- واطرقا دائمًا بأقدامكما على الأرض.

- بأقدامنا...

- ومن ثم أعيدا العملية بالعكس مرة أخرى.

- حضرة الزعيم، ماذا تقصد بإعادة العملية بالعكس مرة أخرى؟

- أقصد أن تغيِّرا مكانيكما مرة أخرى.

- يوجد هناك كرسيان فقط، حضرة الزعيم.

سأل المساعد الثاني بصوت خافت:

- نعيد العملية بالعكس مرتين. أليس الأمر نفسه كما كان من قبل بالضبط؟

- لا، لأنه أمر معكوس في الوقت نفسه. بعبارة أخرى، أنت غيِّر مكانك مع زميلك في الوقت ذاته الذي يغيِّر فيه زميلك مكانه معك. هل فهمت؟ العملية معكوسة في الوقت نفسه. إنه مفهوم إستراتيجي.

فيما بعد، وعلى بعض الارتباك الذي بدا عليهما، اتبع المساعدان التعليمات، على دائرة الإحراج التي ولجاها.

كانت السعادة تغمر الزعيم وهو يقول:

- هكذا أصبح لدينا حركة وحركة معكوسة في الوقت نفسه في المكان!

قال السيد كراوس:

- من ينام ومن يركض؟ ليس من السهل أحيانًا التفريق بين النائم والراكض.

كان هناك خياران متاحان؛ إما أن يرتديَ المرء خُفَّي النوم أو حذاء الركض. إن أكثر السياسيين فطنةً هم الذين، وحتى اللحظة التي ينتعلون فيها فعليًّا خِفَاف نومهم، يبدون، بعد كل شيء، وكأنَّهم في خضم الاستعدادات الرياضية المكثَّفة للركض.

تمتم السيد كراوس قائلًا:

- إن منشأَ هذا الخداعِ البصريِّ يمكن أن يسمّى دعايةً مضلِّلةً أو قصورَ نظرٍ من المراقب.

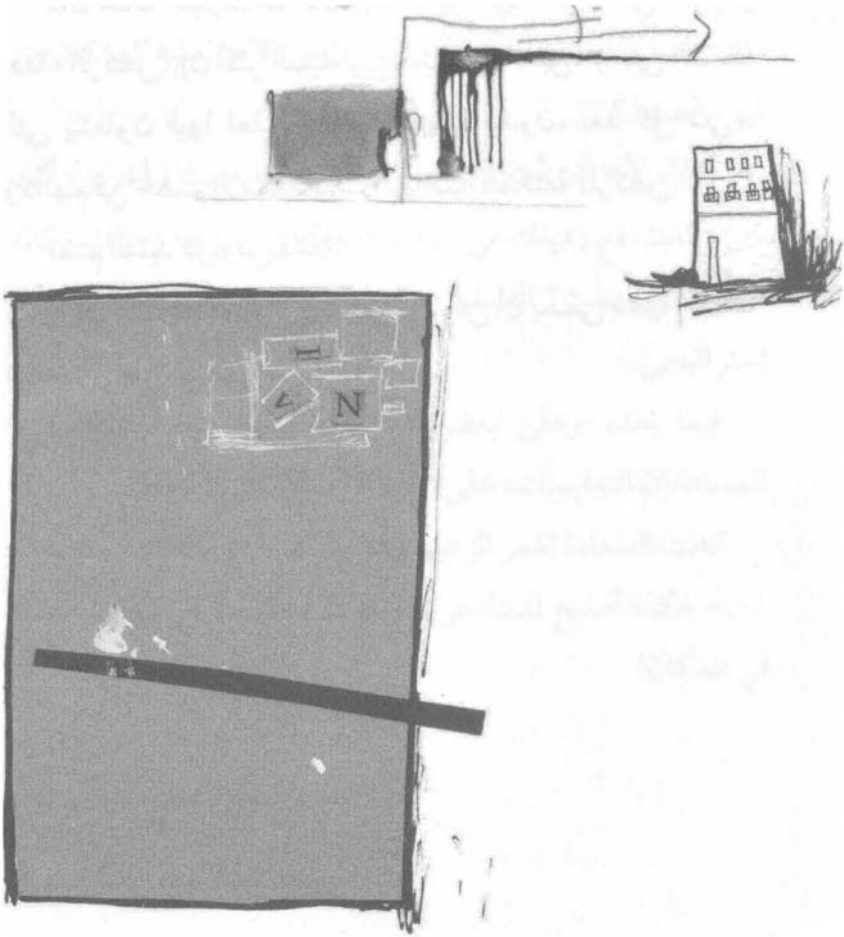
N

الجسر

1

- هذه هي الفكرة، حضرة الزعيم. سنبني جسرَين متجاورَين. سيكون على كلّ منهما حركة مرورية باتجاه واحد. على أحد الجسرَين ستسيرُ السيارات إلى هناك، وعلى الجسر الثاني ستسير إلى هنا. ما رأيك؟ جسران متجاوران تفصل بينهما مسافة تقلُّ عن خمسين مترًا. جسران قريبان من بعضهما بعض بحيث يمكن للسائر على أحدهما أن يلّوح بيديه لشخص يقف على الجسر الآخر. سيكونان كجسرَين توأمين. جسران لم يسبق لأحد أن بناهما في أوروبّا!

لا بل حتى وفي العالم.

في العالم!

هزَّ الزعيم رأسه ثم خيَّم صمت طويل. ومن ثم، قال بصوت تبدو عليه سيماء الرزانة:

- قبل أن تسنبطا حلولًا عبقرية، يجب التفكير بالمال الذي سينفق على بنائهما. فالمال ليس مالنا؛ إنه مال الشعب.

- حسنًا، حضرة الزعيم.

- جميل.

قال الزعيم:

- لذلك، وبدلًا من بناء جسرَين، أقترحُ بناءَ جسرٍ واحدٍ فقط، مع السماح بحركة السياراتِ في الاتجاهين.

- برافو! فكرة ممتازة، حضرة الزعيم.

- مدهش!

أضاف الزعيم:

- سنخفض النفقات إلى نصفها.

- وَفق حساباتي، ودون إجراء أيّ بحث أو تمحيص، إن ذلك يعادل بالضبط خمسين بالمئة.

وافق المساعد وقال:

- برافو، حضرة الزعيم!

- والآن، حان الوقت لنعلن بأننا تمكنَّا من خفض نفقات هذا المشروع بقيمة النصف. هكذا سيرى الشعب مدى حماستنا الشديدة وحرصنا على المال العام.

- حسنًا.

ثم قال الزعيم:

- أشعر فقط بالأسف لأنّ مساعديَّ الرائعين لم يقترحا بناء ثلاثة جسور منذ البداية بدلًا من اثنين. لو كانا قد تقدَّما بذلك الاقتراح، لكان بمقدورنا اليوم أن نعلن أنّنا خفَّضنا النفقات لتصبح

ثلث النفقات الفعلية.

- أنت محقٌّ، حضرةَ الزعيم.

- ولكنّنا فشلنا في اقتراح ذلك. قال المساعدُ بصوتٍ خافت، مطرقًا برأسه خجلًا.

2

على كل حال، عَدَلَ الزعيم عن رأيه في اليوم التالي.

- لأسباب تُعد جزءًا من بنيتي الفكرية الداخلية، التي لا داعيَ للحديث عنها في هذا المقام لأنّ مديح النفس ليس من الأخلاق الحسنة في شيء، فقد قررتُ بأننا لن نبنيَ جسرَين، بل لن نبنيَ حتى جسرًا واحدًا. سنبني ثلاثةَ جسورٍ. ثلاثةَ جسورٍ متجاورةٌ جنبًا إلى جنب. أو بعبارة أدقَّ: ثلاثة جسور متجاورة جنبًا إلى جنبٍ. وسيسمح كلّ جسر منها للحركة المرورية بالانتقال في اتجاه واحد فقط.

سأل أحد المساعدَين:

- كم المسافة بين كل جسر والجسر الذي يجاوره؟

- لم تُقرَّر المسافةُ الدقيقةُ بعدُ. إذ يجب عليَّ إجراءُ حسابات بخصوص ذلك. لا يمكن اتخاذُ هذه القرارات قبل إجراء حسابات

معينة... ولكنّي أرغب في جعل المسافة خمسين مترًا، فأنا أحبَّ هذا الرقم.

دوَّن المساعدُ ذلك الرقمَ في مفكّرته ووضع تحتَه خطًّا وكرَّر قائلًا: خمسون مترًا!

وتابع الزعيم حديثه:

- سنقوم بصيانة الجسرَين. ستكون الحركة المرورية على كل جسر باتجاه واحد فقط -حركة بهذا الاتجاه، والأخرى في ذلك الاتجاه- أمّا الجسر الثالث، فسيكون جسرًا اختياريًا. ففي الصباح، وعندما يدخل إلى العاصمة عدد كبير من السيارات، سيسمح الجسرُ الثالثُ فقط للحركة المرورية بالقدوم من الضواحي نحو العاصمة. وفي نهاية اليوم، سيتحوّلُ اتجاهُ الحركة في الجسر الثالث من العاصمة نحو الضواحي.

قال أحد المساعدَين متعجّبًا، في محاولة منه لاحتواء عاطفته:

- وهكذا، هكذا سيكون لدينا دائمًا جسران مفتوحان في الاتجاه الذي يكون ضروريًا للتعامل مع تدفّقٍ أكبرَ في الحركة المرورية!

- بالضبط. قال الزعيم.

- وسنستثمرُ أكثر بثلاثة أضعاف في تحديث بلدنا ممّا لو كان عليه الحال لو بنينا جسرًا واحدًا.

- بالضبط!

- حضرة الزعيم...

- نعم؟

- حضرة الزعيم!

كانت شفتا المساعد ترتجفان وهما مشوبتان بالعاطفة.

- حضرة الزعيم، حضرة الزعيم!

- ماذا دهاك؟ تكلّم يا رجل!

- حتى إنّ بناء ثلاثة جسور متجاورات حدثٌ غير مسبوق؛ حدثٌ أكثر روعة من بناء جسرَين.

- لم يخطر ذلك على بالي.

- إنها فكرة فريدة.

فيما يخصُّ ولع السياسيين باستخدام الأرقام في أحاديثهم (أو لنقل بصيغة أخرى: فيما يخصّ أهمية أناشيط الأحذية)، قال السيد كراوس مقولته التالية:

- إنّ أيَّ رقم دقيق يطرح على مرأى من عيون جمهورٍ لا يشعر بالثقة والأمان ومشتّت الانتباه يؤدّي إلى الإصابة بالعمى. فعندما يطرحون رقمًا طرحًا مباشرًا على وجوهنا، ينبغي لنا التظاهر بأنَّ انتباهَنا قد تشتّت، مقلِّدين بذلك ممثّلين هزليّين معيّنين من زمن الأفلام الصامتة، وأن نستغلَّ تلك اللحظة المواتية ونربط أناشيط أحذيتنا. وعندما ننتصبُ في نهاية الأمر واقفَين مرة أخرى ونرفع رؤوسنا، سيكون الرقم قد أزَّ كأزيز الرَّصاص، بسرعة خارقة، وبهذا لن يكون للرقم أيُّ تأثير على في حاسة الرؤية لدينا. لو انتظرنا برهةً، لكان بإمكاننا حتى أن نسمع الرقم وهو يرتطم بالجدار متشظّيًا إلى العديد من القطع المتفاوتة الأحجام. إذ إن حاسّة الرؤية لمَّا تزل سليمة في حينها، فسيكون بمقدورنا عندها أن نشهد مشهدًا مفجِعًا للبقايا المتناثرة لما كان، قبل مجرد لحظات، رقمًا دقيقًا، ومقنِعًا، وحاسمًا.

حين كان جالسًا في المقهى، في كرسيّه المعتاد، دوَّن السيد كراوس بعض الملاحظات في مفكرته.

شذرة بخصوص الخطابات السياسية

لا يمكن التأكدُ من حجم أقدام أفراد الشعب من خلال حجم أحذيتهم.

ثمَّة احتمالان اثنان: إمّا أن تكون الأقدامُ أصغر من الحذاء وأنّ الحذاءَ يبالغ في تعبيره عن حقيقة حجم القدم التي فيه؛ أو أنّ الأقدام أكبر من الحذاء، وسيتمُّ التضحية بالحقيقة التي ستبقى طيَّ الكتمان.

عدم فعالية الفيتامينات

يظن بأنَّ الفيتامينات ستساعده في أن يدُسَّ الحيوية في أفكاره، ولكنّ أكثرَ المنتجات قدرةً على الشفاء ليست منتجات إبداعية؛ فهي لا تؤدّي لأيّ شيء؛ هي فقط تعزّز الخاصيّات الموجودة لديه سابقًا.

الدقّة في المواعيد

لا يمكن للمرء التخلّي عن بعض العادات أبدًا. فالسياسيُّ الجيِّدُ سيصلُ متأخّرًا حتى لو كان ذاهبًا لحفل افتتاح ساعة.

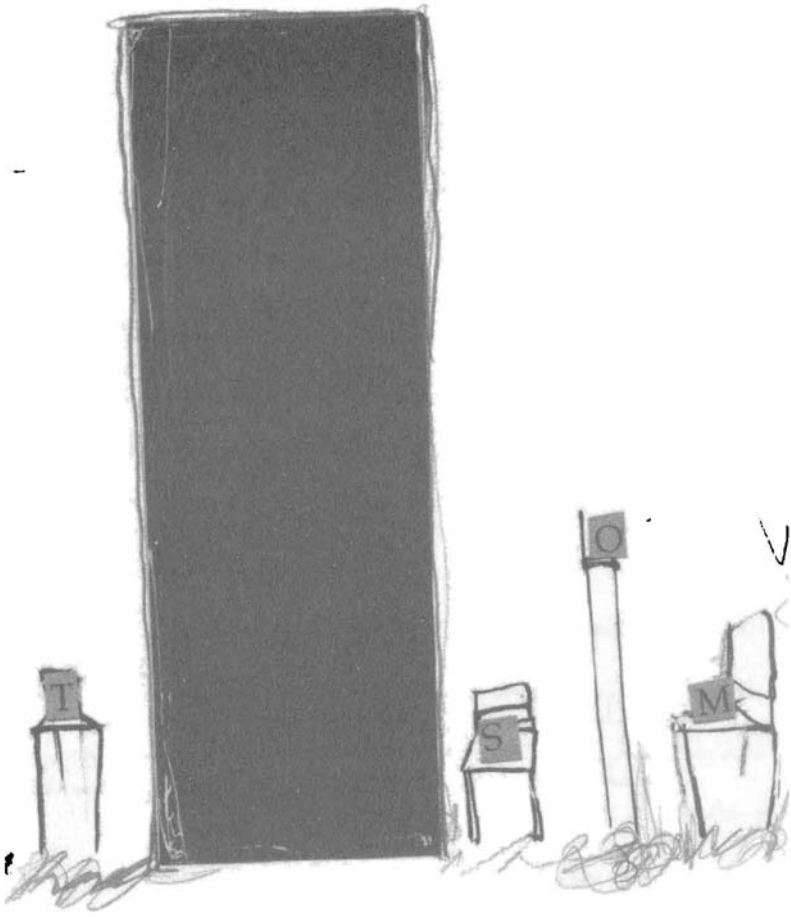
T
S
O
M

حفلات الافتتاح

1

كان الزعيم متوتّرًا. كان يمشي جيئةً وذهابًا من جهة لأخرى. ثم ما لبثَ أن قال:

- لا يوجد شيءٌ لنقيم له حفلُ افتتاح، لا شيء! هؤلاء القوم لم يصنعوا حتى ولو كرسيًّا واحدًا. لا شيء لنحتفل بافتتاحه!

قال المساعد الأول:

- ولا حتى إبرة، يا حضرة الزعيم.

تمتم المساعد الآخر:

- لا يوجد حتى ولو إبرة لنحتفل بافتتاحها. ولا حتى إبرة صغيرة.

أصرَّ المساعد الأول، جامعًا إبهامه وسبَّابته معًا بطريقة معبِّرة:

- ولا حتى شيء بهذا الحجم! مثل هذا!

أيَّده المساعد الثاني:

- لا شيء!

بدا الأمر تقريبًا كما لو أن المساعدَين قد نُوِّما تنويمًا مغناطيسيًّا بسبب خطابهما الرتيب ذاك.

- لا شيء حتى ولو خُرم إبرة.

- لا شيء حتى ولو خُرم إبرة.
- ولا حتى نصف إبرة.
- ولا حتى نصف خُرم إبرة.
- لا شيء، لا شيء!
صاح الزعيم بهما:
- كفاكما! لا أستطيع أن أتحمَّل الاستماع لكما أكثر من ذلك.
- سنخرس، حضرة الزعيم.
ثم صاح المساعد الأول فجأة:
- لديّ فكرة!
- برافو!
- إليكم فكرتي: حضرةَ الزعيم، هل سبق لك وأن زرتَ مكانًا تعيسًا، متجمّدًا، مقْفِرًا؛ لا بل إنه مكانٌ يُعد من وجهة نظر معيّنة مكانًا مقزِّزًا، ومع ذلك فهو مكان يبشر بالخير؟
- أنا؟ بالطبع لا. أمجنون أنت؟
- حسنًا، هذا هو المكان المطلوب!
- أي مكان هذا الذي تتحدّث عنه؟!
- يمكننا أن نفتتح حضورك في ذلك المكان. فهذه هي المرة الأولى التي يذهب فيها الزعيم إلى هناك. أليست فكرة مذهلة؟
- لقد بدأتْ تلك الفكرة تروق لي، إضافةً إلى أنها فكرة منطقية.

- لا شيء كمثل أهمية وجودك هناك سيحدث على الإطلاق في ذلك المكان.

تمتم الزعيم، بينما كانت يداه شبه غارقتين في ذقنه، وعلامات الرضا باديةٌ عليه.

- كفاكَ مبالغةً.

- ربما ينبغي لواحد منا أن يفتتح حدث حضورك في ذلك المكان، يا حضرة الزعيم. ما رأيك؟

- تريدني أن افتتح بنفسي حدث حضوري في ذلك المكان!

قال المساعدان بنبرة واحدة:

- الأمر ليس سهلًا.

- أن تكون راعي حفل الافتتاح، وأن تكون أنت مناسبة حفل الافتتاح في الوقت نفسه.

حصل ذلك عندما أجاب الزعيم من فوره، بينما كان يرفع ذقنه بقوة نحو السماء:

- أنا رجلٌ يحبُّ مواجهة الصعاب وجهًا لوجه.

وبالفعل، كان الزعيم كذلك؛ كما وصف نفسه.

2

- حضرةَ الزعيم، كلُّ شيء يشغل حجمًا قد افتُتِح في هذه الأرض المباركة التي ساقتنا الأقدار لنعيش في ربوعها!

أصاب اليأس المساعدَين مرة أخرى. جالا ببصرهما حولهما؛ كان كل شيء حولهما قد افتُتح في مرحلة سابقة.

بل إن بعض الأشياء افتُتحت منذ عدة قرون خلت.

- وماذا عن هذه القلعة؟

- لقد افتُتحت قبل عهد فخامتكم.

قال الزعيم:

- إذا كان كل شيء يشغل حجمًا في هذا المكان قد افتُتح سابقًا، فيجب علينا أن نفكّر بافتتاح أشياء لا تشغل حجمًا!

- لم تخطر لي تلك الفكرة، يا حضرة الزعيم.

ثم أردف المساعد الآخر، بدهشة:

- في الواقع، خطرت تلك الفكرة على بالي. ولكني ما لبثت أن نسيتها بعد ذلك.

تابع الزعيم، متجاهلًا تمتمات المساعد المتحمّسة:

- طيب جدًّا. عندي فكرة!

- أين هي، حضرة الزعيم؟!

تابع الزعيم: هاكم الفكرةَ؛ هل سبق لهذا اليوم الذي نحن فيه أن حلَّ سابقًا في هذا المكان؟

- حضرة الزعيم، أتريد أن تعرف إنْ سبق وأن حلَّ هذا اليوم الذي نحن فيه الآن قبل هذه اللحظة الزمنية؟

أوضح الزعيم:

- في هذا المكان، أنا أشير إلى هذا المكان فحسب.

- أبدًا، حضرة الزعيم. هذا هو أول يوم يبزغُ فيه فجرُ يومنا هذا في مكاننا هذا.

- هذه هي فكرتي!

- ماذا تقصد، حضرة الزعيم؟

- يمكننا أن نقيمَ حفل افتتاح بمناسبة حلول هذا اليوم في هذا المكان. سافتتح يومنا هذا الذي نحن فيه.

- يا لها من فكرة رائعة، حضرة الزعيم.

- بدلًا من افتتاح الأماكن، يمكننا أن نفتتح الزمان. تلك بلا شك فكرة مهمّة جدًّا.

توقَّف الزعيم عن الكلام. خيَّم الصمت. ثم تابع كلامه:

- على كلّ حال، إنّ إقامة حفل افتتاح واحد فقط -أي افتتاح حلول اليوم الذي نحن فيه- لا يبدو حدثًا عظيمًا جدًّا. كم هي المدة الزمنية المخطّطة لنا للبقاء في هذا المكان، يا مساعدَيَّ العزيزين؟

- وفق البرنامج الموضوع، فالخطّة أن نبقى هنا ساعتين.

- ساعتان؟ وكم عدد أرباع الساعة الموجودة في هاتين الساعتين؟

- ثمانية أرباع، حضرة الزعيم. أربعة أرباع في الساعة الأولى، زائد أربعة أرباع في الساعة الثانية. وهكذا يكون المجموع الكلي ثمانية.

- حسنًا، لن نقوم بافتتاح اليوم ذاته، ولكننا سنفتتح بدلًا من ذلك أرباع الساعة. كل خمسَ عشرة دقيقة سنقوم بافتتاح الخمس عشرة دقيقة التي تليها. ثمانية حفلات افتتاح.

صعق المساعدان من هول المفاجأة.

- إذًا، هذا ما كان يجول في خاطرك عندما ذكرتَ إمكانية افتتاح الأشياء التي لا حجم لها؛ أي الأشياء التي لا تشغل حيزًا مكانيًّا؟

أوضح الزعيم:

- تقوم فكرتي أساسًا على افتتاح الأشياء غير المرئية.

قال المساعد الأول:

- بالضبط.

وأردف المساعد الثاني:

- افتتاح اللامرئي! ياه! يا حضرة الزعيم، يا لها من فكرة مذهلة!

3

- تقوم الفكرة أساسًا على نقل رسالة فحواها أن كلَّ ما لا يُرى فنحن من بناه وشيَّده.

- ممتاز، تلك هي الفكرة بالضبط.

- لأنه يوجد هناك دائمًا خلافات حول الأشياء التي يمكن أن تُرى. إذ يقول أحدهم: أنا من فعل هذا، أو أن هذا الشيء بني عن طريقه، إلى آخره، إلى آخره. أنتما تعرفان كيف أن الشعب...

- الشعب...

- بهذه الطريقة يمكننا أن نرتاح. دون أن نتعرّض للنقد.

- صحيح جدًّا.

- يمكننا أن نقول: انظروا حولكم، انظروا بدقّة حولكم؛ فكلُّ ما لا ترونه، نحن من أبدعه وبناه!

- بالإضافة إلى أنه يمكننا أن نقول: أيّ شيء لا يمكن أن يُرى لم يكن موجودًا قبل عهدنا.

- ممتاز.

- يا لَلشعار العظيم: أيّ شيء لا يمكن أن يُرى لم يكن موجودًا قبل عهدنا.

- إنْ كانت هناك عبارات يمكنها أن تلهبَ خيالَ الجماهير

بضربة واحدة، فهذا الشعار أحدها.

- ممتاز، ممتاز!

ثم قال أحد المساعدَين:

- ولكن يجب علينا أن نضع قيودًا على المسألة.

- قيود، كيف؟

- يجب أن نقول شيئًا من قبيل: كل شيء يحيط بنا ضمن مساحة 150 (مئة وخمسين) كيلو متر مربّع ولا يمكن أن يرى، نحن الذين بنيناه؛ وقبلَنا لم يكن شيئًا مذكورًا.

- إذا لم نضع تلك القيود، فإنّ شعارنا قد يفهم منه التلميح إلى أشياء خارج بلدنا.

- ومن ثَمَّ؟

- ومن ثمَّ، فربّما يشكّ الشعب بالأمر. فكيف يمكن لنا فعلُ الأشياء -حتى لو كانت غير مرئية- خارج بلدنا؟ كيف لنا أن نبنيَ شيئًا، مثلًا، في دولة جارة لنا؟

- معك حقٌّ.

- أضف إلى ذلك، إذا قلنا بأنّ كل ما هو غير مرئي على الجانب الآخر من الحدود المتاخمة لبلدنا هو من صنع أيدينا، فإننا نخاطر برفع دعاوى قضائية ضدنا. المسألة مسألة قانونية.

- معك حق.

- إذًا، نحن بنينا كلّ شيء غير مرئي، ولكن ذلك يشمل فقط الأشياء الواقعة في نطاق حدودنا الإقليمية. هل المسألة على ذلك النحو؟

- بالضبط.

يبدو لي ذلك جيدًا.

قال السيد كراوس:

- في تلك الجهة، أطلق الرجال الذين يتبعون أوامر الزعيم النار باتجاه أبطأ الطيور طيرانًا.

أمّا في هذه الجهة، فقد التقط الزعيم طيرًا أو طيرين طائرَين من الطيور التي أصابها رجالُه، وأمام مرأى الجميع، حاول أن يعالجها، وكرَّس نفسَه لذلك الهدف بأبلغ ما تكون العاطفة والحنان، يومًا بعد يوم. وسهر حصريًا على شفائها. إنقاذ طير واحد من الطيور على الأقل أصبح هاجسه.

قد يظنُّ إنسانٌ غِر بأن الأمر سيكون أسهلَ لو لم تصدر الأوامر بإطلاق النار على الطيور من الأساس. على كل حال، ستعاد الكرَّة مرة أخرى في السنة التالية.

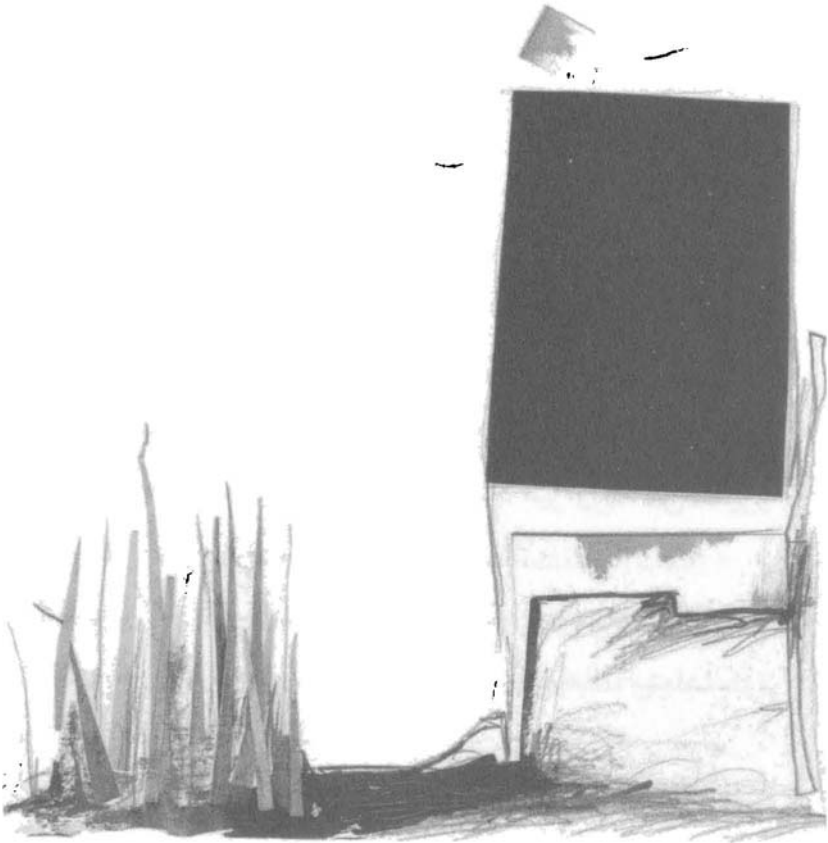

الخريطة

1

أعطَوا الزعيم (مرة أخرى) خريطة البلاد -كانت هذه خامس أو سادس خريطة تُعطَى له. فقد ضيَّع الخرائطَ التي أعطيت له سابقًا، أو دوَّن في أعلاها الكلمات الرئيسة الواردة في خطاباته، أو مخّط بها أنفه، أو وضعها تحت زجاجة نبيذ لكي لا يلطِّخ الطاولة؛ باختصار، كان الزعيم شارد الذهن.

على كلّ حال، كان أيضًا حريصًا كلَّ الحرص، بطريقة معينة. فكان مثلًا ينظّف كافّة السوائل والبقع المتروكة -سواء أكانت نبيذًا أو موادّ أخرى- فقط بالجزء من الخريطة الذي كان يمثِّل المناطق الداخلية من البلاد؛ المناطق الأشد جفافًا.

وقد حاول أحد مساعديه، وكان مساعدًا ذا مستوى ثقافي أرفع شأنًا من باقي المساعدين، منذ عدة أشهر، أن يشرح للمدير بأن الخريطة كانت مجرد رسمٍ يصوّر البلد.

على كل حال، لم يفهم الزعيم ما قاله المساعد. ولم يكترث بالغطرسة التقنية، وكان يردّد قائلًا:

- لا أرغبُ بسماع أيّ نظريات.

في الحقيقة، كان الزعيم يعاني من إشكالية فكرية؛ فهو لم يكن

يستطيع التمييز بين الواقع وتصوير الواقع.

فخلال إحدى موجات القحط، وبعد أن قرَّر أن يكتب كلمة «مطر» بقلم على منطقة كانت متعطّشة للمطر تعطشًا يفوق غيرها من المناطق، أصابته حالة من الذهول المطلق عندما اكتشف، لاحقًا، أن المطر في واقع الأمر لا يهطل أصلًا في تلك المنطقة.

ودون أن يتوقّف عن التفكير في أيّ من أعدائه الذين يمكن لهم أن يحبطوا أفعاله القوية، تمتم الزعيم لنفسه، وهو مزهوٌّ بها:

- ولكن لو كتبتُ كلمة «مطر» على الخريطة لكان...

2

ولكن كما أسلفنا، حتى ولو كان الأمر كذلك، كان الزعيم دائمًا ما يضيِّع خرائط الأمة أو يتلفها. على كل حال، لم يكن مشتّت الفكر تشتيتًا كليًّا؛ فكان مثلًا يحتفظ دائمًا في جيبه الأيمن، بدليل البرامج الخاصّ بمختلف القنوات التلفزيونية، كانت يحتفظ به بحالة سليمة وبعناية وحرص فائقين.

ثمّة نظريةٌ كامنةٌ وراء ذلك؛ إذ اعتاد الزعيم على القول بها:

- الأشياء التي لا تتناسب مع العرض في التلفزيون، أشياءُ لا تنتمي لبلادنا. تلك أشياء خارج نطاق بلادنا.

بالنسبة له، أكثر خريطة أصيلة للبلاد كانت جهاز التلفزيون الذي كان لديه في البيت.

كانت هذه الرؤية الشخصية للزعيم.

ثم قال متعجّبًا:

- وما حاجتي لخريطة؟ ما أحتاجه هو أنّ أشغِّلَ كلَّ القنوات التلفزيونية!

قال أحد المساعدَين:

- وبذلك، إن كنتُ فهمتُ ما قلتَ فهمًا صحيحًا، فإنّ حضرة الزعيم سيرى ما يحصل عبر القنوات المختلفة ومن ثمَّ يقوم بالفعل، عن طريق اتخاذ إجراءات فعَّالة أو اتخاذ إجراءات فعَّالة جدًّا لكي يحلّ المشكلات. أليس الأمر على هذا النحو؟

أجاب الزعيم:

- تقريبًا. من الضروري التفصيل في شرح ذلك بعض الشيء.

خيَّم الصمت في القاعة. كان الزعيم يكتسب الزخم المطلوب لمتابعة الشرح.

- اشرح لنا التفاصيل، حضرة الزعيم.

- التفاصيل، نعم التفاصيل!

ركَّز الزعيم، بصمت، مهيِّئًا نفسه ليشرح تفاصيل أكثر.

3

بدأ الزعيم يشرح تفاصيل أكثر. واستخدم في سبيل ذلك أسلوبًا بعينه؛ أسلوب تكرار الأشياء.

أعاد الزعيم ما قاله:

- إنّ مفهومي عن تعريف «الحدود» يتجلّى من خلال الخطوط التي تحدِّد شاشة التلفزيون. وكل ما يظهر خارج إطار الشاشة لا ينتمي إلى بلادنا، فهو سلفًا خارج حدودها. أتفهمان ذلك؟

كان أحد المساعدَين يدوِّن الملاحظات، في حين حملق الآخر دهِشًا، فاغرًا فمَه حتى أقصاه. وكانا يتبادلان هذين الدورين بين حينٍ وآخر.

في تلك الأثناء، بدا وكأنّ موجة من الارتعاشات ألمَّت بالمساعدَين وتركتهما أثرًا بعد عين. لم تكن ارتعاشات جسدية، بل ارتعاشات فكرية. تملَّكهما معًا شعورٌ بأنهما كانا يشهدان لحظة نادرة؛ لحظة ولادة فكرة تنبعث للعالم، فكرة تولد للمرة الأولى، فكرة لها وقع جبروت قنبلة لا تقهر.

تمتم أحد المساعدَين متحدّثًا مع نفسه:

- آه، لو أنَّ مع الزعيم فقط قاذفَ قنابل. لنتخيّل ماذا يمكن له أن يفعلَ حتى ولو معه قاذف قنابل واحد لا غير!

قال الزعيم، بنبرة صوت حاسمة، بعد أن استعاد أنفاسه

ومنح المساعدَين الوقت للحملقة من خلال نظرتيهما المليئتين بالإعجاب الذي لا تتسع له الدنيا، وكان في الوقت نفسه يمد إبهامه مدًّا يحمل في مكنوناته عمقَ التقى والورع الديني، ضغط على الزر الموجود على شاشته وقال:

- هذه بلادي.

4

كان المساعد الصغير، على هذا اللقب المعطى له، شخصًا عملاقًا ينضح بالرجولة، ودائم الوقوف على بعد أمتار قليلة من الزعيم، حارسًا إياه. كان متأهّبًا دائمًا ليتدخّل بسرعة في النقاشات الفكرية الأشد وطأة. أصرَّ المساعد الصغير قائلًا:

- لا ضير في أنْ يحفظ الزعيم خريطة البلاد.

أجاب الزعيم على ذلك الطرح، منزعجًا:

- ليست لدي حاجة لمعرفة الجغرافيا! ما أحتاج أن أفعله هو إعداد الخطابات. الشيء الأكثر أهمية هو أن يعرف المرء كيف يلقي خطابًا يتحدّث فيه عن الجبال. بالله عليكما، من يحتاج لأن يعرف أين تقع تلك الجبال؟

ولكن المساعد الصغير (العملاق) ألحَّ قائلًا:

- ولكن من الجيد أن تعرف أين تقع أراضي الأمة. عندها لن يخرج حتى ولو متر مربع واحد عن طوعك وأمرك.

هنا مربط الفرس إذًا. داعبَتْ الجملة الأخيرة أكثر المواضع حساسية في كيان الزعيم.

- تابع، تابع.

- إن من فضائل معرفة البلاد، وبخاصة جغرافيتها، أنه يمكنكم نتيجة لتلك المعرفة إصدار أوامركم لكل زاوية فيها مهما صغرت. إن كنتم تعرفون جغرافيا بلادكم، يمكن حينها لأوامركم أن تكون شاملة، بحيث تصل إلى أقصى متر مربع في البلاد. المسألة شبيهة تقريبًا بورقة عليها شبكة من المربعات، ومن ثم يجري ملء كافة المساحات وفق توجيهاتكم. ولن يبقى حتى أصغر تلّة من التلال أو جدول ماء غار ماؤه دون أن تصل إليه النيات الطيّبة لإجراءاتكم السياسية.

- لم يخطر ذلك في بالي من قبل.

تابع المساعد الصغير:

- ولكن، فكّروا، بل فكّروا عميقًا، يا حضرة الزعيم، هل تظنون بأنه يجوز لبعض القرى الصغيرة، المختبئة خلف جبل من القش أن تُحْرَم من شرف تلقّي أمرٍ أو أمرين سياسيين على الأقل كلّ يوم من فخامتكم؟

تمتم الزعيم:

- معك حق. ناولني تلك الخريطة.

استطلاعات الرأي

1

اقترب موعد الانتخابات، ولم تكن استطلاعات الرأي تصبُّ في صالح الزعيم.

قال الزعيم:

- تكمن المسألة في الفكرة التالية: عندما يقول فرد ما، حتى ولو كان فردًا يملك زمام السيطرة على أفكاره، بأنَّه يميل إلى اليسار وليس إلى اليمين، فمن يستطيع الجزم بأنه لا يفكّر بعكس ما قاله تمامًا؟

- تلك مسألة يمكن النظر فيها دائمًا.

تابع الزعيم:

- إضافة إلى ذلك، كيف لنا أن نعرف أن من يقول بأنه يريد الذهاب إلى اليسار يريد فعليًّا الذهاب إلى اليمين؟

تمتم أحد المساعدَين:

- لقد خطرت تلك الفكرة على بالي مسبقًا.

ثم أضاف الآخر:

- وأنا أيضًا فكّرت بذلك أيضًا.

ثم ما لبث المساعدان أن قالا باتفاق تام:

- لقد خطرتِ الفكرة على بالنا في الوقت نفسه.

- ولذلك، تقوم نظريتي حول استطلاعات الرأي، في المقام الأول، على الآتي، دعوني أشرح لكم...

كان المساعدان قد رتَّبا سلفًا تعابير وجهيهما، كانا آذانًا صاغية مصغيةً لما سيقوله الزعيم.

تابع الزعيم:

- لا يكفي الحصول على آراء الشعب؛ بل من الضروري تفسير تلك الآراء. فحتى عندما يرسمون مجرد إشارة (+)، يجب أن نعرف ماذا يقصدون؟ ينبغي لكل رأي شخصي أن يفسَّر باستخدام عدسة مكبّرة، وأنّى لأحدٍ أن يقوم بذلك غير أولي العلم وأهل الاختصاص.

- أولئك الذين...؟

- أولئك الذين أسمّيهم المتخصّصين في ذاتي البشرية.

تمتم المساعد:

- ولذلك، نحتاج للمتخصّصين في دراسة العقل البشري والشخصية البشرية...؟

أجاب الزعيم على عَجَل، ومشدّدًا فيما بعد على كلمة «المتخصّصين»:

- من قال إنّ الموضوع يتعلّق بالبشر. أنا قلت، المتخصّصين

في ذاتي. في ذاتي، هل فهمت ذلك؟!

- آه، الخبراء المتخصّصون في فخامتكم، أي في شخصيتكم، حضرة الزعيم.

- حسنًا، هأنتما تفهمان! وأخيرًا! ومن هو أفضل المتخصّصين في شخصيتي، أنا أسألكم؟ من هو أفضل المؤهّلين ليفسّر الرأي الذاتي للأفراد المتميّزين بذاتية عالية من أبناء هذه الأمة؟ من هو أفضل المتخصّصين في ذاتي؟

جازف المساعدان بالقول:

- أهو فخامتكم أنتم؟

قال الزعيم:

- بالضبط. أنا! أنا! أنا من يفسّر تفسيرًا موضوعيًّا الرأي الذاتي للشعب.

- برافو! تلك فكرة تنهل من العلم نهلًا.

2

قَبِل الزعيم، أخيرًا، وقال:

- حسنًا، إن كانت استطلاعات الرأي ترغب في اللجوء إلى مشاركة الشعب، فلتكن.

- إنهم يتحدثون عن عينات عشوائية.

- عينات عشوائية؟ ما ذلك إلا طيش وحماقة!

- نعم عشوائية، ولكن ليست عشوائية إلى تلك الدرجة. فعلى كلّ شيء، يوجد نظام في عشوائيتها. فعن طريق عدد معيّن من النساء، والرجال، إلى آخره. تغدو المسألة مسألةً علميةً بقضِّها وقضيضها.

- دعوهم يحافظون على العنصر العلمي في استطلاعات الرأي، فلطالما كنتُ مولعًا بالعلم. ولكن أنا من ينبغي له أن يحدد مكوِّنات هذا العلم.

- وكيف ذلك، فخامة الزعيم؟

- إن المقترح الذي يبدو لي أكثر الحلول عدلًا وتوازنًا من بين كل الحلول هو أنه ينبغي لاستطلاعات الرأي أن تمتد لتشمل أكبر عيِّنة ممكنة؛ عينةٌ تشمل الرجال والنساء والشباب وكبار السن بالإضافة إلى الفئات الأخرى من الشعب.

- حتى الفئات الأخرى من الشعب؟

- نعم، حتى أولئك.

- هذه هي الديمقراطية بحق!

صاح المساعد الآخر من فوره:

- عاشت الديمقراطية!

- ويجب أن نعطيهم جميعًا رقم هاتفي.

- ماذا؟

قال الزعيم:

- رقم هاتفي. يجب أن نعطي رقم هاتفي لكل واحد من أفراد هذه العيّنة الممثّلة للشعب، العيّنة المختارة عشوائيًّا وَفقًا لمعاييرَ علمية. يجب أن يتصلوا بي ليرَوا ما هو رأيي. وبهذا سنجري عملية استطلاع رأي نزيهة، على عينة واسعة، تعطي رأيها بموضوعية وترو.

- أي أنَّك، يا حضرة الزعيم، تقترح أنه وبدلًا من الإدلاء بآرائهم، فإن أفراد عينة استطلاع الرأي سيتصلون بك لكي تعطي رأيك لكل واحدٍ منهم.

- لكل واحدٍ على حدة.

- ولن يكون بمقدورهم اتهامنا بالتلاعب بالنتائج؟

- بالطبع لن يتمكّنوا من اتهامنا. فالسؤال سيطرحه دائمًا شخص مختلف. هذا هو ما ينبغي لنا أن نركِّز عليه. يمكن لأي متصل من أفراد العيِّنة أن يسألني عن رأيي. كيف يمكن التحكُّم في البيانات إذا كان أفراد الشعب أنفسهم هم من يوجّهون الأسئلة لي؟

- أنت على حقّ، حضرة الزعيم.

- يا لَها من فكرة رائعة!

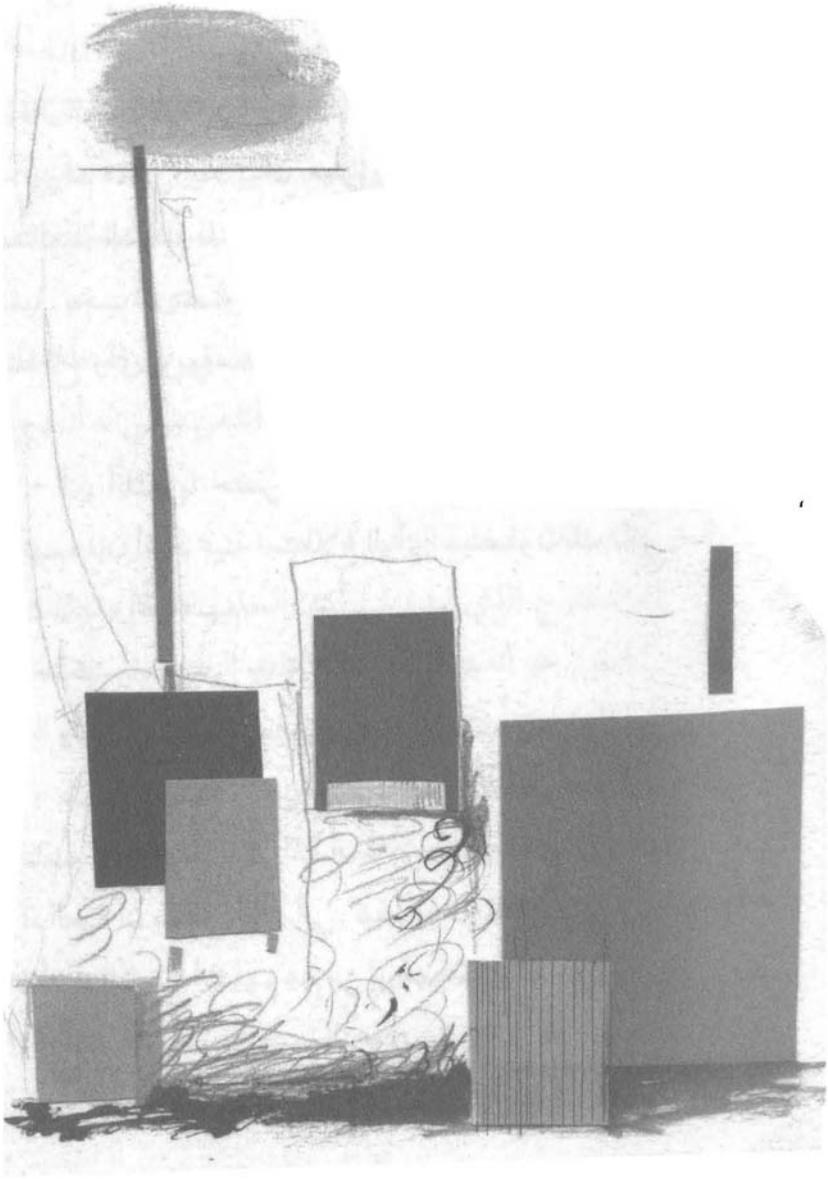

- ما المهم في المناظرات التلفزيونية؟

أجاب السيد كراوس:

- إن عُمْقَ المحاججة في المناظرة يخسر (بالضربة القاضية) أمام براعة حركة الحاجبين. كم من الأصوات التي ستجلبها ارتعاشة مفاجئة للأنف في لحظة حاسمة من لحظات المناظرة؟

ثم تمتم السيد كراوس قائلًا:

- إن الجواب على ذلك سيقوِّض أركان إيماننا بالديمقراطية.

حوار (قبل الانتخابات بيوم واحد)

- لنتأمل هذا الأمر المتعلّق بوجهة النظر المتوازنة، وإجراء استطلاعات الرأي في كل وقت وحين، استطلاعات رأي عن كل ما يخطر على البال.

- نحن نعيش في قَرْن الديمقراطية، يجب أن يدلي الشعب بدلوه في كلّ شيء.

- وحتى أولئك الذين تكون أصواتهم...

- حتى هؤلاء.

- بناءً على ذلك، سيقرّر الشعب كل شيء.

- كنت أتحدّث، على سبيل المثال، عن مباراة في كرة القدم.

- مباراة ليست أكثرَ من مجرّد دكتاتورية يمارسها اللاعبون.

- إذًا، فاقتراحُك يقوم على...

- سأكّرر اقتراحي: يجب أن يُترَك قرار نتيجة المبارة المباراة للمتفرّجين عليها وليس للاعبين.

- حسنًا.

- فبدلًا من اثنين وعشرين لاعبًا وحكَمٍ يقرّرون نتيجة المباراة، سيقوم المتفرجون البالغ عددهم ثلاثونَ ألفًا بذلك. سيقومون بذلك عن طريق التصويت. إنه لفرقٌ شاسع. ما عليكَ سوى أن

تحسب النتيجة رياضيًّاتيًّا.

- المتفرّجون الحاضرون في الملعب هم فقط من سيصوِّتون؟

- نعم.

- إن في ذلك كل العدل.

- كما أنها ستكون طريقة ممتازة لحثّ الجمهور على الذهاب إلى الملعب ومشاهدة المباراة. سيكونون فعليًا مسؤولين عن تحديد النتيجة. سيكون الموضوع جديرًا بأن يذهب الجمهور إلى الملعب. لا أظن أنه من النزاهة ترك أمر ما على تلك الدرجة من الأهمية الكبيرة -مثل نتيجة مباراة- فقط في أيدي (أو أقدام) عدد من المواطنين لا يزيد عن أربعة وعشرين مواطنًا.

- في هذه الحالة، تقصد بالمواطنين اللاعبين.

- بالضبط.

- لن تقرر نتائجَ المباريات آنئذٍ المهاراتُ الآنية للاعبين، بل ستحددها القرارات الحكيمة التي يتخذها الجمهور.

- يبدو ذلك منصفًا من وجهة نظري. فنحن نعيش في قرْن الذكاء وتصويت الجمهور.

- يا للروعة! مباراة كرة قدم يقرر نتيجتها تصويت شعبي (جمهور المباراة تحديدًا) وليس بناءً على عدد الأهداف التي يسجلها اللاعبون! إن تغييراتٍ مثل هذه هي التي ترتقي ببلدٍ

متخلف ليصبح أمة متطوِّرة.

- نعم.

- بدلًا من قرارات تتخذها أرجل اللاعبين؛ بدلًا من تلك القرارات العضلية، والبدنية، وغير الدماغية، وغير الديمقراطية، سيحل بدلًا منها قرارات مبنية على شريحة واسعة من الآراء.

- وبذلك ستصبح مباريات كرة القدم نوع من الاستفتاء.

- نعم، ولكن يجب أن نلاحظ ملاحظة في غاية الأهمية: يجب أن تُلْعَب المباراة أولًا.

- وستكون مباريات لا قيمة للأهداف المسجلة فيها.

- ستتخذ القرارات عقب نهاية المباراة، وسيحدِّد أشخاص جادُّون الفريق الفائز، بغض النظر عن الأهداف المسجَّلة، دون أن يتأثروا بالعواطف التي ربما اعترت جوارحهم أصلًا. سيقررون النتيجة بعد التأمل منطقيًا فيما حصل فعليًا في المباراة.

- إن وجود مباريات مشبوبة العواطف لا تستحق أن تنتمي إلى قرنٍ تتطلب فيه العقلانية التعامل مع الأحداث بطريقة مختلفة.

- بالضبط.

- العقلانية والديمقراطية، إن مستقبل كرة القدم يكمن في أهمية رأي كل مواطن وتصويته.

- إنَّ في ذلك كل العدالة.

- وماذا بخصوص الانتخابات الخاصة بتحديد الشخص الذي يحكم الأمة؟

- آه، بالنسبة لهذه المسألة، أظن أنه يجب علينا أن نجري مباراة كرة قدم تقليدية؛ إذ يختار كل حزب أحد عشر لاعبًا، والفريق الذي يحرز أكبر عدد من الأهداف هو الذي يحكم.

- يبدو ذلك منطقيًا وعقلانيًا.

- تلك طريقة متناسبة مع روح هذا القَرْن الذي نحن فيه.

- نعم، إنها لجديرة بهذا القَرْن الذي نحن فيه.

انتهت الانتخابات. صرف الكَنَّاس أكثر من ساعتين وهو يكنس أوراق الاقتراع نحو زاوية القاعة بمكنسته.

ها هي أوراق الاقتراع، لا قيمة لها الآن، تتقدم بغير إرادتها نحو الزاوية وكأنها مناديل قذرة وليس أوراقًا كانت حاسمة لأمة من الأمم في وقت معين. كُنِستْ الأوراق كما تكنس الزبالة. كان السيد كراوس يراقب المشهد كاملًا مراقبةً دَيْدَنُها السوداوية.

في اليوم الذي تلا الانتخابات، وهو جالسٌ إلى طاولته المعتادة في المقهى، دوَّن السيد كراوس في مفكِّرته الملاحظات الآتية:

ملاحظة استدلالية 1

في تواصلهم مع الأفراد المتواضعين من الشعب، يُقبِّل بعض السياسيين أفراد الشعب على خدودهم، تقريبًا مثل شخص يقف على رصيف الميناء وهو يودِّع قاربًا يطلق أشرعته للريح في رحلة لن يعود منها أبدًا.

العلاقة بين السياسيين والشعب

بعد حملة انتخابية صاخبة، يتجلّى أعظم مكسبٍ لأيّ انتخابات ديمقراطية في أن الشعب يغادر أخيرًا صالات الاستقبال التي يخصّصها السياسيون لهم.

يصف بعض السياسيين المنتخبين ذلك الشعور بأنه شعورٌ بتنفّس الصعداء، يبدو الأمر شبيهًا باللحظة التي يزول فيها ألم شديد لسبب غامض.

ملاحظة استدلالية 2

عندما يقبِّل السياسيون كبار السن، فذلك يذكِّرنا بأولى العَضَّات الخجولة التي تعضها دودةٌ لجسدٍ لا يملك وسيلة يهرب بها ولا بابًا يخرُج منه.

ما بعد الانتخابات

بعد الانتخابات؛ أيُّ انتخابات كانت، دائمًا ما يتملَّك السياسيين -سواءً أفازوا في الانتخابات أم هزموا فيها- شعورٌ بأن الفئة من الشعب الأكثر عمقًا قد ركبت برمّتها في قطار، وكأنما حشروا أنفسهم فيه حشرًا ويمَّموا شطر أرض بعيدة. وسيعودون، هُمْ هُمْ، في القطار ذاته، فقط في الأسابيع التي تسبق موعد الانتخابات القادمة.

هذا الفاصل الزمني أساسي بحيث إذ يتسنى للسياسيين الوقت لكي يوقظوا الكُرْه أو اللامبالاة من مضجعهما إيقاظًا لطيفًا رقيقًا، ثم لا يلبثان أن يتحوَّلا إلى عاطفة حقيقية جديدة.

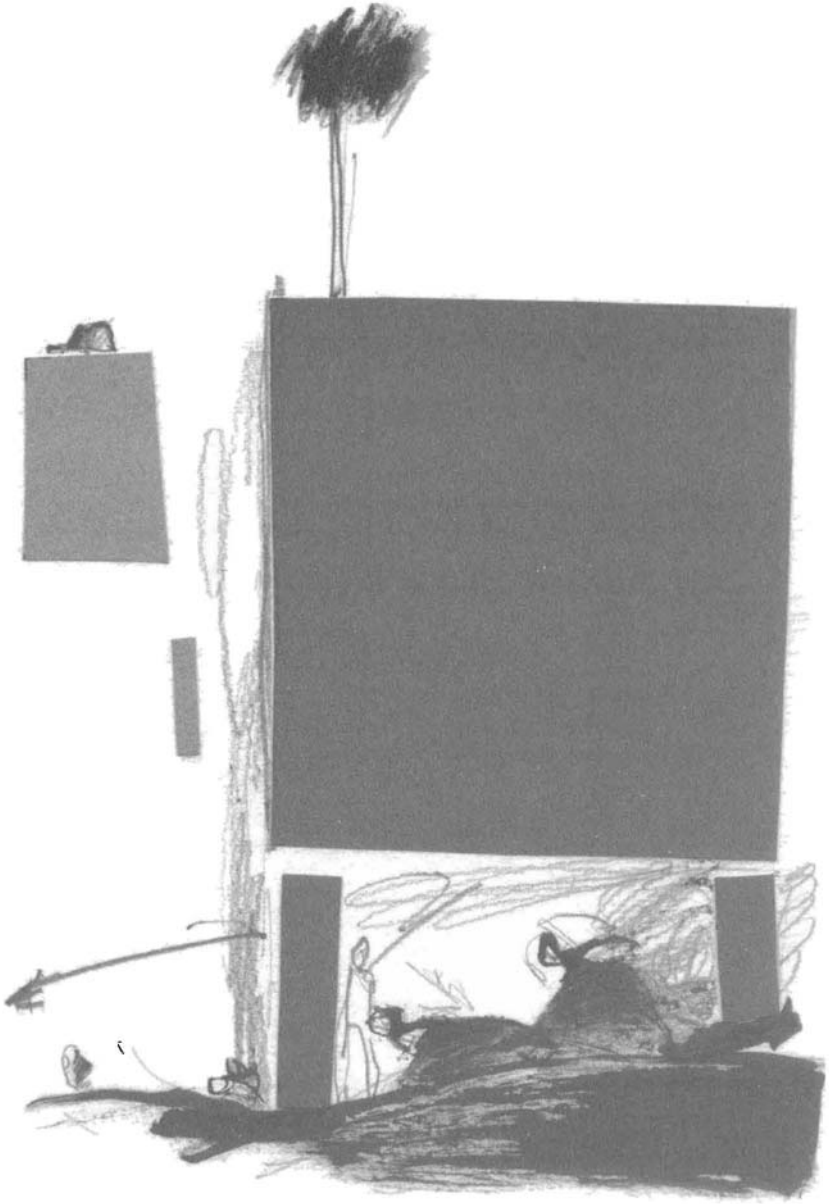

تمتم أحدهم قائلًا:

- تبدو الكلمات التي يقولها المنتصرون دائمًا وكأنها أكثر الكلمات ذكاءً ودهاءً.

رد السيد كراوس:

- يجب مع ذلك النظر فيما إذا كان سبب ذلك جودة الكلمات ذاتها أو بسبب الضجة الذي تُحْدِثها الحشود عندما تختلط الكلمات بالضجة، مما يمنع المرء من حسن الاستماع.

ولكن السرديّات الإخبارية استمرّت في الصدور حتى بعد أفول هدير الانتخابات..

اليوم الذي تلا الانتخابات

1

- حسنًا، هل فُزتَ في الانتخابات؟

- نعم، فُزْت.

- إذًا فأنت الزعيم الآن.

- من هذه اللحظة فصاعدًا، نعم أنا الزعيم. وأنت؛ ما هو عملُك؟

- عملي هو التخلّص من العمالة الزائدة.

- حسنًا.

- على سبيل المثال، إذا كان هناك زعيمان، فعملي هو التخلّص من أحدهما. ذلك جزء من توصيفي الوظيفي. لا، بل إنني أحمل خنجرًا للقيام بعملي.

- سيكون من حسن الحظ ألا تكون نتيجة الانتخابات هي التعادل.

- ذلك فأل حسن! ولكن انظر، أحيانًا حتى عندما يكون هناك زعيم واحد...

- وهل تعمل بمفردك؟

- ما من أحد يرغب في أن يعمل بمفرده. في الحقيقة، أنا أعمل

مع موظف آخر يحاول أن يضمن بأن كل شيء يُشْرح دائمًا شرحًا واضحًا.

- رائع.

- لقد أثمرتْ هذه الجهود المشتركة عن إحداث توازن بين كثير وقليل؛ بين الكثير الكثير من التوضيحات والقليل القليل منها. لا أعرف إن كنت تفهم ما أرمي إليه؟

- بلى، وما تقوله يبدو منطقيًا.

- إن أسلوبنا في العمل سيكون كالآتي: يتفضَّل زميلي أولًا ويقدِّم الكثير الكثير من الشروحات، ثم أظهر أنا وأقول: لم يكن من الضروري لزميلي أن يشرح هذا، وهذه، وتلك. فما قاله بخصوص هذا وذاك زائدٌ لا لزوم له.

- حسنًا. يا لها من إستراتيجية.

2

- أستميحك عذرًا مرة ثانية، ولكن حضرة الزعيم، ما اسمك؟

- نادني حضرة الزعيم فقط.

- الزعيم أم حضرة الزعيم؟

- حضرة الزعيم.

- هذا الاسم يشبه اسم حضرة الزعيم السابق.

- كلنا أبناء بلد واحد، وهذا سر تلك المصادفة.

- ولذلك فالاسم هو حضرة الزعيم.

- بالضبط.

- في رأيي، ينطوي ذلك على حكمة كبيرة، فهو يحول دون وقوع الأخطاء في الأسماء.

- تلك إحدى الفوائد.

- على كلّ حال، تبقى هناك مسألةُ المناداة باستخدام "الزعيم" أو "حضرة الزعيم" فقط. فنحن لدينا حضرة زعيم واحد، ابتداءً من البارحة؛ أي فخامتكم. أما الزعماء، فيوجد لدينا بين كل زعيم وزعيم زعيم آخر. لدينا زعيم في كل عشرة أمتار مربَّعة.

- هل ذلك كثير؟

- هذا الجناح الذي نحن فيه مساحته ثلاثمئة متر مربع، ولذا، يا حضرة الزعيم، يمكنك إجراء حساب رياضي لتعرف عدد الزعماء الذين يمكن أن يكونوا فيه.

- إن كان لدينا في كل عشرة أمتار مربّعة زعيم واحد، فسيكون لدينا في مساحة ثلاثمئة متر مربع...

- كم العدد؟

- ثلاثون زعيمًا.

- بالضبط. ثلاثون زعيمًا. أليس ذلك رقمًا مجنونًا؟

- لا، لأن ثلاثمئة تقسيم عشرة يساوي ثلاثين. أيُّ جنونٍ ذلك الذي تتحدث عنه؟ أين الجنون في ذلك؟

- كنت أتحدَّث عن المفهوم الكامن وراء ذلك. انظر، حتى أنا، أنا الذي أطيع تقريبًا من هبَّ ودبَّ، أنا الزعيم، وليس حضرة الزعيم، أنا زعيم على اثنين أو ثلاثة من البؤساء.كلهم زعماء باستثناء الشخص الأخير فقط في التسلسل القيادي.

- لا يبدو ذلك عادلًا.

- إذًا، فلدينا زعيم جديد؟

كان ذلك السيد هنري، الذي كان منهمكًا في حالة حوارية فريدة في تميزها.

ودون أن يبطئ من نغمة حديثه، أجاب السيد كراوس باقتضاب:

- يبدو ذلك من الوهلة الأولى، من الوهلة الأولى!

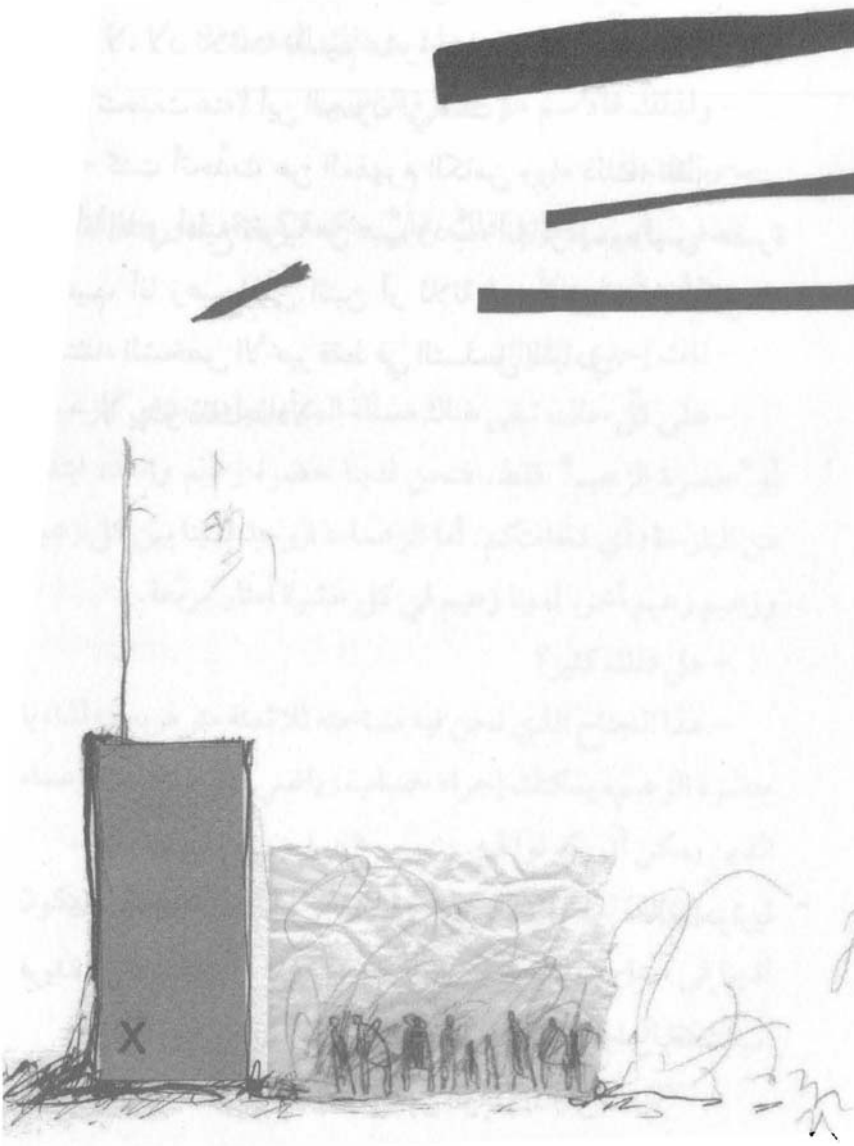

العودة

1

كان المساعدون متوقّدين فرحًا؛ فقد مضت أسابيع عديدة ولم يمارسوا عملهم كمساعدين لأحد، أما الآن فيمكن تحقيق كل الرغبة التي تسيطر عليهم للمساعدة.

كان العديد منهم قد حاول ذلك في أثناء المدة التي غاب فيها الزعيم، ولكن بدا الأمر كما لو أن الأشخاص الذين كانوا هم يرغبون بمساعدتهم يفرّون منهم. فقد فرَّ منهم بعض الأشخاص، النجباء منهم، فرارًا فعليًا. كان المشهد واضحًا للعيان، فرُّوا راكضين، وضعوا قدمًا أمام أخرى وأطلقوا أرجلهم للريح؛ اختفوا من المشهد كله. لقد كانت الحقيقة ماثلة أمام المساعِدين؛ كان أولئك الذين احتاجوا لخدماتِهم يهربون عند اقترابهم منهم. وحتى كبار السن، ممن كانوا يعانون من صعوبات في الاستيعاب والحركة، حتى هؤلاء هربوا منهم باندفاعة مفاجئة ومحيِّرة، اندفاعة ملؤها الحيوية. هربوا عند مرآهم، وغابوا في الأزقّة الضيّقة المعتمة -المسنُّون والمسنَّات ذوو الأحجام الضئيلة، أولئك الذين نتحدث عنهم، اختفوا فجأةً ولم يرهم أحد مرة أخرى. أصبح المساعدون بلا عمل. كل ما أرادوه كان فقط أن

يعملوا مساعدين مع أي شخصٍ كان.

أما الآن، فقد انتهت كل هذه المدة كلّها. لقد عاد الزعيم!

غمرتِ السعادةُ العديد من المساعدين حتى إنَّهم مرُّوا بتغييرات فيزيولوجية عميقة. كانت قلوبهم تخفق فقط كخفقان قلب إنسان بدائي. حتى إن أحد المساعدين تمتم متحدّثًا مع نفسه، بنبرة شبه صامتة، وهو يشعر بأن قلبه يخفق كإيقاعات المطاردات البدائية التي كانت تجري في سالف الزمان:

- لا يبدو عليَّ حتى مظهر الإنسان المتحضِّر!

كان متأثرًا تأثرًا شديدًا.

عاد الزعيم، الزعيم عاد، نعم الزعيم، حقًا عاد الزعيم!

2

- ربما تطوَّرت الأحوال في غيابي، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما التطور؟ ولماذا يوجد تصورات سالفة عن العودة، وعن التأخّر، وعن التردّد؟

- بالضبط، حضرة الزعيم.

كان هناك شحّ في المعلومات عن المدينة، أما ما كان صحيحًا، فهو أنَّ قلبي المساعدين شرعا يخفقان خفقًا أفضل الآن! بل يمكننا

القول إن جاز التعبير، بأن قلبيهما كانا يخفقان ذكاءً لولا أن القلب عضو متخصص في مسائل أخرى غير الذكاء.

ولكن كان هناك عمل ينبغي القيام به.

- حضرة الزعيم، لدينا هنا سلسلة من التقارير المعلَّقة وسلسلة من الأشياء الفعلية التي ما لا تزال جارية على قدم وساق! حضرة الزعيم، عليك أن تنظر في هذه المسائل كافة!

أضاف المساعد الثاني:

- لم أرى أرَ شيئًا كهذا في حياتي من قبل.

قال الزعيم:

- عندما غادرت، كانت الأمور تسير في اتجاه آخر.

أضاف المساعد الأول: ليس فقط في اتجاه آخر...

- بل كانت تسير على نحو الدقّة في الاتجاه المعاكس!

وافقه المساعد الثاني قائلًا:

- بالضبط، كانت القضايا الحقيقية معلَّقة، وكانت التقارير هي ما كان يتحرك.

قال الزعيم:

- حسنًا جدًّا، لا وقت نضيّعه. يجب علينا أن نسير بسرعة كبيرة في اتجاه الماضي.

- هذا عين الصواب، حضرة الزعيم.

3

عاد الزعيم.

قال أحد المساعدَين:

- ثمة، على سبيل المثال، قضيةُ الأشغال العامة وقضية أعمال الهدم.

توقّف الزعيم عن الكلام (لقد اشتاق المساعدان للحظات توقّفه هذه) ثم باشر كلامه قائلًا:

- لقد فكّرتُ في هذه القضية مليًّا وتوصلت للنتيجة التالية: إنّ الشيء الأساسي هو ألا نقوم بشيئين معًا في الزمان والمكان أنفسهما.

- كيف، حضرة الزعيم؟

قال الزعيم:

- يبدو لي بأنّ أفضل شيء نفعله هو أن نهدم في مكان وأن نبنيَ في مكان آخر. بحيث لا نخلط الحابل بالنابل. في الحقيقة، أودُّ أن أقول بأنّ المفهوم الجديد الذي سأطوِّره بعد عودتي هو مفهوم الـ...

- مفهوم الـ...

- مفهوم الـ... (أَدْمَنَ الزعيم عادةَ رفع حاجبيه كثيرًا، وكان يبدو كمن صاغ من فوره لغزًا). إنه مفهوم البناء التصاعدي ولكن

بطريقة تنازلية! أليست فكرةً مثالية؟ نهدم المبانيَ القديمة ونبني مبانيَ جديدة فوق المباني المنهارة؛ وسبب قيامنا بذلك، بطريقة معينة، هو أن الأشياء مآلها في النهاية السقوط.

- يبدو هذا المفهوم مفهومًا فلسفيًا تقريبًا.

قال الزعيم، الذي سرَتْ في عروقه حماسة الشباب وهو يتابع القيام بمسؤولياته الوظيفية:

- نعم، دون شكّ، إنه مفهوم يطرح فكرة إدراك الزمن. فكل شيء يتغيَّر، يا مساعدَي العزيزين، وكل ما هو قائم اليوم لا شكَّ سيسقط يومًا ما. ولذلك، ومن اليوم فصاعدًا، ستكون مدينتنا أول مدينة تبني مبانيها وفق رؤية ثاقبة تقوم على إدراك أنّ كل الأشياء مؤقتة -النظرية المؤقتة- وبناءً على ذلك، سنهدم مباني ونبني أخرى فوقها، وهذه المباني الجديدة ستنهار في المستقبل.

- برافو، حضرة الزعيم. يمكننا من خلال هذه الفلسفة أن نوفِّر حتى في الإسمنت.

- لم تخطر تلك الفكرة على بالي.

مرآب السيارات

غيرَ غافلٍ عن وجود أعداد لا تعدُّ ولا تحصى من أبناء الشعب، ورجال الدين، وحتى عِلِيّة القوم؛ ممن لا يفقهون شيئًا عن المحرِّكات أو السيارات، قال الزعيم:

- كفى!

وبعد أن حصل على الزخم المطلوب لما سيقوله تاليًا، أصدر الإعلان التالي:

- كفى!

سأل أحدهم:

- ماذا تقصدون بكفى!

أوضح الزعيم:

- كفى تعني كفى.

- أتقصد أن كفى تعني كفى؟

- بالضبط.

يبدو أن الزعيم لم تَرُقْ له العادة الديمقراطية المتمثلة في تخصيص سيارات بمواصفات مختلفة بحسب المنصب الوظيفي المتسلسل لأصحابها.

فكَّر بأنه من المهم، عند النظر في الأمر للوهلة الأولى، حتى بالنسبة لشخص يرتع في غياهب الجهل؛ بالنسبة لشخصٍ لا يفقه أي شيء عن العلامات التجارية، والشاحنات الصغيرة والمحركات، أن يكون قادرًا على التمييز بين مجرَّد مدير عام وبين وزير.

كان هذا هو السبب الوجيه الذي حدَاه بأنْ يوصي بكيل المديح والثناء لمزايا الدراجات الهوائية التي كانت تجوب المدينة؛ فهي

غير ملوِّثة للبيئة.

الدراجات الهوائية؛ وهل تعرفون تقنية أحدث منها؟

وهكذا، في مواقف السيارات المخصصة لموظّفي الحكومة، أُحْدِثت مواقف مخصصة لسيارة واحدة، ومواقف لدراجتين ناريتين، ومواقف لأربع دراجات هوائية، ومواقف لتسعة رؤوس من الخيل؛ لا بل أنه أُحدثت مواقف يمكنها أن تتسع لأكثر من عشرين حمارًا.

واتباعًا لما أقرَّته الأعراف السائدة بخصوص احترام التسلسل الوظيفي، وعلى اختلاف السرعات التي سارت بها تلك الأنواع من وسائل النقل على الطرق القصيرة المستقيمة، كان راكبو الحمير يصلون في العادة أولًا.

قال السيد كراوس:

- إنه لَعبَثٌ صبياني أنْ يخاطبنا السياسيون من السماوات العلى، ويشيرون بأصابعهم نحو الأعلى قائلين: أترون؟ في تلك اللحظة بالذات يجب علينا أن ننظر بانتباه بالغ إلى الأشياء التي يخبؤونها في أقبية منازلهم.

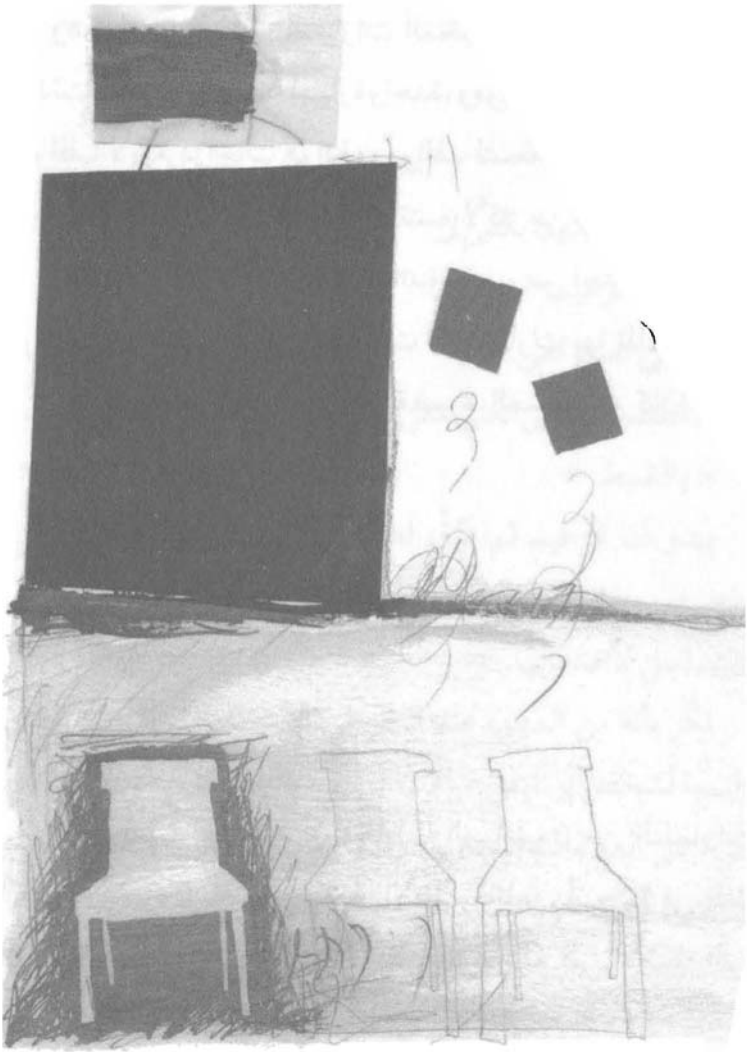

عن الحكومة المستنيرة أحدِّثكم

كان هناك عددٌ كبير من الوزراء، مما حتَّم أثناء الاجتماعات العامة توظيف أحد الأدلَّاء ممن يعملون في صالات السينما على إرشاد مرتادي الصالة إلى المقاعد المخصصة لهم.

ولذلك، ووفقًا لتقليدٍ قديمٍ قدم الزمان، كانت اجتماعات مجلس الوزراء -مثلها في ذلكَ مثل الأفلام- تُعقَد في العتمة، وكان الدليل بمصباحه الكهربائي الومَّاض هو (حرفيًا) الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه أن يرى أمامه.

عند وصول أي وزير من الـوزراء، كان الدليل يصطحبه، مستهديًا دائمًا طريقَه باستخدام المصباح، يجتاز به الصفوف العديدة، حتى يصل إلى مكانه في مجلس الوزراء.

- هذا الصف، الكرسي الثالث في آخر الصف.

معتذرًا من الوزراء الآخرين، شقَّ الواصل الجديد طريقه متجهًا صوب مقعده، وغالبًا ما كان يدوس على قدم هذا وذاك أثناء مشيته.

ولحظة مغادرة الدليل ذي المصباح، اكتست القاعة بعتمة دامسة، دون أن يُرى فيها ولو بقعة ضوء؛ وعندها يحين موعد الجملة التقليدية التي أعاد الزعيم أن يقولها من فوره، مهدئًا من روع وزرائه بصوته قائلًا:

- أنا هنا، أنا هنا!

وبعد أن يستطيع الحضور تحديد موقع الزعيم، من خلال المصدر الذي انبعث منه صوته، كان الاجتماع يبدأ.

جالسًا في كرسيه المعتاد، حانيًا ظهره نحو الأمام، جهَّز السيد كراوس سردياته الإخبارية التالية مدوِّنًا بعض الملاحظات في مفكرته.

«مسوِّغات» سن دستور مبهَم

اشتكى من أنه لم يتسنَّ له الوقت حتى ليأكل، فقد كان مخلصًا أشد الإخلاص للشأن العام. على كل حال، كان وزنه قد زاد رويدًا رويدًا. ولذلك فقد اقتنع كل من في القاعة بأن الشأن العام مرتبطٌ ارتباطًا كبيرًا بزيادة السعرات الحرارية.

أسباب الاستقالة

يجب إدارة شؤون أي أمة بحكمة وبواسطة الاستخدام المتأني والمدروس للذكاء. ولذا، كلما وقع أحد السياسيين في الحب، وجب عليه أن يترك منصبه من فوره.

دقة مواعيد لفظية

كان أحد السياسيين يعيد ترديد الكلمات ذاتها مرَّات عديدة جدًّا بالنغمة الرتيبة نفسها، حتى إنّ زملاءه اعتادوا أن يضبطوا عقرب الساعات الكبير لساعاتهم على موعد ورود كلمة «الحرية» وعقرب الدقائق الصغير على موعد ورود كلمة «الديمقراطية».

قرارات قانونية، وقرارات أخرى

1

- لأني إنسان، فإن أي قانون يُعتَمد ويلحق الضرر حتى ولو بفرد واحد هو قانونٌ يضطهدني كفرد. هذا هو، على الأقل، المنظور الذي أرى منه تلك المسألة.

تلك الكلمات كانت كلمات التضامن الصادرة عن الزعيم؛ الزعيم الذي كان شديد الالتصاق بالجماهير، وكان التضامن في أوجِه نظرًا لأنه كان هناك في تلك اللحظة حاجة ملحّة لوضع حد للاحتجاجات المستمرة، التي ما تلبث أن تظهر بعد إجراء أي تغييرات في القانون.

في الواقع، كانت القضيـة فقط تتعلّق بوجـود دائمٍ لفئـة من الشعب شعرت بأن الأذى يصيبهـا.

ما كان من المشرِّعين حينها سوى أنهم حاولوا صوغ قانون لا يلحق الضرر بأي أحد، ولو شخصًا واحدًا، ولكنهم عجزوا عن سنّ مثل هذا القانون.

وحتى عندما سنُّوا قوانين خاصة بالأشجار أو الرياح، لم يتوقّف الشعب عن الاحتجاج. كانت الاحتجاجات تندلع دائمًا، كان البشر هم المحتجين في تلك الحالة وليست الأشجار أو الرياح.

ولكن الزعيم كان يصر قائلًا:

- سِنُّوا قانونًا لا يؤذي أحدًا، ولو شخصًا واحدًا؛ لا يؤذي شيخًا كبيرًا، ولا بائسًا فقيرًا. ذلك مُناي وأملي.

قال المساعدان:

- إن ما تطلبه ليس قانونًا، يا حضرة الزعيم، بل معجزة.

سأل الزعيم من فوره:

- ومن المسؤول عن هذا النوع من القوانين الخاصة؟

غصَّت القاعة فجأة في صمتٍ مطبق.

ارتبك المساعدان. لم يعرف أحد كيف يجيب على الزعيم إجابة أكيدة.

في مؤخرة القاعة، ووسط الصمت والسكون اللَّذَين خيَّما على المجتمعين فيها، اجترأ أحد المساعِدين الجدد على رفع يده.

- أجبني، أيها السيد المساعد، أنت الجالس هناك في المؤخرة.

- حضرة الزعيم، لستُ على اطلاع على الهيكل التنظيمي الكامل، ولكن لا يوجد هيئة حكومية مسؤولة عن المعجزات، لذا أقترح إنشاء مثل تلك الهيئة.

قال الزعيم، وقد غلبه الحماس:

- يا لها من فكرة ممتازة.

على كل حال، ومن خلال التعابير المرتسمة على وجهه، كان

يمكن للمرء أن يلاحظ مباشرة بأن الحل الذي اقترحه المساعد أثار أسئلة جديدة وعميقة: هل سيكون هناك مساحة كافية على الورقة المستخدمة لكتابة الهيكل التنظيمي بحيث يمكنها أن تتسع لإضافة هيئة أخرى؟

2

وصل المشرِّع شبه متقافزٍ قفزات تشوبها الحماسة، فقد وجد صيغة لمرسوم بدا أنه يحقق الهدف المنشود؛ الهدف المتمثّل في سنّ قانون لا يلحق الأذى بأحد.

- وما هي تلك الصيغة، يا عزيزي المشرِّع؟

- إنها صيغة متواضعة. هاكم أقرؤوها على مسامعكم.

ثم شرع بالقراءة:

«ينصّ هذا القانون على أنَّ موادَه لا تنصّ على أي شيء».

- ولكن هل يسمّى ذلك قانونًا؟

- لو نُشِرَت هذه الجملة... وفخامتكم يعلم ذلك كل العلم، فالقوانين ليست أساسًا سوى جُمَل، لو نشرت هذه الجملة كمرسوم قانوني فإنها ستصبح مرسومًا رئاسيًا.

ثم تمتم الزعيم متحدثًا مع نفسه، كمن يكرِّر لنفسه بيتًا شعريًا

افتُتن به.

- «ينصّ هذا القانون على أنَّ موادَه لا تنصّ على أيّ شيء».

- إنه قانون حديث كله، ألا تظن ذلك؟

- نعم، وفي حين أنه يبدو قانونًا ملتزمًا بالأعراف والقواعد، فهو قانونٌ حازمٌ قبل كل شيء.

وهمَّ الزعيم يريدُ أن يقول:

- لأن الشعب...

ثم ما لبث أن صمت.

- نعم، بشكل أدقّ: إن ما يرغب به الجميع هو عدم تغيير أي شيء، ولكنهم يرغبون في تحسين حياتهم.

- آه، لن يكون الأمر بتلك السهولة.

- لا. ولكن لو إن تابعنا بهذا النهج من القوانين، فسيكون هناك سلسلة من المتغيِّرات التي يمكن تطويرها. إليك مثلًا القانون التالي: «ينص هذا القانون على أن الأشياء يمكن القيام بها بطريقة واحدة أو أي طريقة أخرى». ما رأيكم بمثل هذا القانون؟ أليس هذا أيضًا بقانون يتناسب تناسبًا تامًّا مع هدف صياغة القوانين المتمثل في عدم إثارة أي نوع من الاحتجاج؟ «ينصّ هذا القانون على أن الأشياء يمكن القيام بها بطريقة واحدة أو أيّ طريقة أخرى». يا لَها من صيغة رائعة، حتى لو قلتُ ذلك لنفسي. نعم، إنه ليس

قانونًا سيئًا. ولكني أرغب دائمًا في سنّ قوانين واقعية وموضوعية، قوانين يستطيع الشعب أن يفهمها.

- يا حضرة الزعيم، لا تكن عنيدًا.

3

لم يقتنع الزعيم. فقد كان يحب صوت القانون، نغماته، مقدّمته وخاتمته، على عدم اقتناعه تمامًا بما يحتويه.

بدا وكأن شيئًا كان مفقودًا. بالفعل، شيءٌ ما كان مفقودًا. ولكن ما هو؟

كرَّر الزعيم الجملة مرة أخرى، هذه المرة بصوت عالٍ:

- **«ينص هذا القانون على أن الأشياء يمكن القيام بها بطريقة واحدة أو أي طريقة أخرى»**.

ثم تابع متمتمًا:

- أعرِف! أعرف أن ما أفكِّر به غير موجود. ذلك إحساس فردي جدًا، أنا أقرُّ بذلك، ولكن لدي ما أقوله: يدور هذا القانون حول السماح للمرء بأن يفعل شيئًا ما بطريقة ما أو بأي طريقة أخرى. حسنًا جدًا، ولكن السؤال المطروح هو: عمَّ؟ عمَّ يتحدث هذا القانون؟

تمتم المساعد الأكبر سنًّا، متنازلًا، بقوله:

- إنّ ذلك غير منصوص عليه بشكل مباشر، القانون دائمًا مبهمٌ، وغير محدّد. هناك ذِكْرٌ لشيءٌ ما وكأن الجميع يعرفون ما هو ذلك الشيء. أنا لا أعرف ما هو ذلك الشيء الذي ينص عليه ذلك القانون، وأنتم لا تعرفون؛ لا أحد يعرف. على كل حال، يمكنكم أن تكونوا على يقين من شيء واحد: الشعب يحبّ هذا النمط من القوانين.

- يحبون هذا النمط من القوانين؟

- بالطبع يحبونه. لكي تكون قادرًا على فعل شيء ما بطريقة ما أو بأي طريقة أخرى؟ هل يوجد أحد ما لم ولا يحب هذا النوع من الجزم؟

سأل الزعيم:

- وماذا يغير ذلك في الأمر؟ ما الذي يتغير، مثلًا، مع هذا القانون الذي ينص على أن مواده لا تنص على أي شيء؟

- لا شيء سيتغير.

- لا شيء. ولكن هذا ما يريده الشعب.

قال الزعيم بدهشة، بنبرة صوته الحماسية:

- ما أريده أنا، كما تعلم، ما أريده أنا هو أن أفعل كل شيء، أقصد كل شيء للشعب.

- إذًا، حضرة الزعيم، لا تفعل أي شيء؛ فهم لن يلاحظوا الفرق.

تمتم السيد كراوس:

- السياسيون لا يقرؤون الكتب قراءة عميقة؛ أضعف الإيمان أنهم يقرؤون العناوين. وهم يفعلون مع الشعب ما يفعلونه مع الكتب.

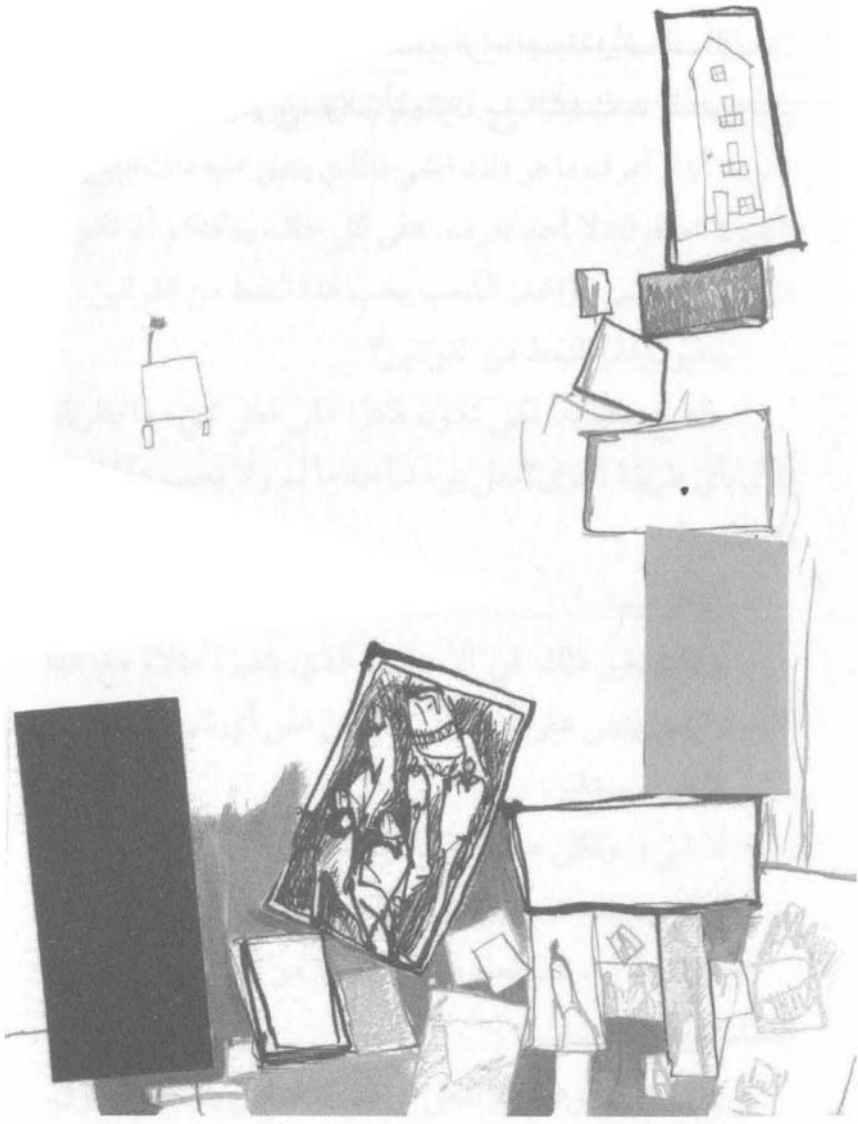

بخصوص طائرة الأمة

1

- مساعدَيَّ العزيزين، أنا غاضب جدًا.
- لماذا، حضرة الزعيم؟ هل من أخبار أخرى غير سارة؟
- لا، سبب غضبي ليس الجرائد، بل العالَم.
- هكذا إذًا، المسألة إذًا ليست بتلك الخطورة!
- هذه ليست بقضية ذات بال؛ لقد أخبَروني بأننا لا نملك حتى ولو نصف طائرة لإطفاء الحرائق. هل هذا صحيح؟

قال أحد المساعدَين، بسخط:

- غير صحيح، غير صحيح!

أيَّده المساعد الآخر:

- غير صحيح.

أكَّد المساعد الأول:

- لدينا نصف طائرة.

أعاد المساعد الثاني التأكيد:

- لدينا نصف طائرة.

ثم أضاف المساعد الأول، رافعًا خنصريه معًا نحو السماء:

- نصفا طائرة.

- نصفان؟

- نعم، لدينا نصفا طائرة.

سأل الزعيم:

- وكم يكون لدينا من الطائرات إذا كان لدينا نصفان؟

- نصفا طائرة يشكّلان طائرة واحدة كاملة.

تعجَّب الزعيم، رافعًا إصبعًا واحدًا معبرًا عن استيائه:

- طائرة واحدة؟

- نعم، لدينا نصفان: المجموع طائرة واحدة. نصف زائد نصف.

قال المساعد الأول:

- بالإضافة إلى الطائرة الحوَّامة التي تعمل، لدينا أيضًا طائرة حوَّامة أخرى معطَّلة.

تمتم المساعد الثاني:

- تلك أيضًا طائرة مهمة.

سأل الزعيم:

- وما هي المهمة التي تقوم بها الحوامة المعطَّلة؟

- مهمتها المراقبة.

- الحراسة.

- وهي على أُهبَة الاستعداد.

- الحوَّامة؟

- كما أن الإذاعة التي فيها غير معطّلة!

2

قال المساعد الأول:

- القضية قضية مفاهيم.

سأل الزعيم:

- مفاهيم، كيف ذلك؟

- عندما يقولون بأنه ليس لدينا طائرات لمكافحة الحرائق، يشعر المرء برغبته في سؤالهم: وما أدراكم أنتم بمفهوم الطائرة؟

وافقه المساعد الآخر:

- بالضبط، هذا ما يشعر المرء بالرغبة في قوله.

أوضح المساعد الأول:

- المسألة تتعلق بوجود نوعين من الطائرات، طائرات جوية وطائرات أرضية. الطائرات الجوية...

أكمل المساعد الثاني:

- هي التي تطير.

- أما الطائرات الأرضية...

أكمل الزعيم، تعلوه ابتسامة الرضا (فقد كان مولعًا بإكمال الجمل):

- فهي الطائرات التي لا تطير!

- بالضبط!

- صحيح أننا لا نملك العديد من الطائرات التي تطير، ولكننا نملك كمية كبيرة من الطائرات التي بإمكانها السير سريعًا.

أضاف المساعد الثاني:

- لدينا كمية كبيرة منها.

تمتم الزعيم:

- ولكن أليست هذه الطائرات الأرضية المدرَّبة على مكافحة الحرائق... ليست سوى سيارات؟

- لا، حضرة الزعيم.

- تلك الطائرات الأرضية ما هي إلّا الإطفائيون أنفسهم!

- الإطفائيون؟

- بالضبط، الإطفائيون. ولكنّي نسيتُ تلك الكلمة. لأن الاسم الجديد الذي اعتمدناه للإطفائيين هو تحديدًا «الطائرات الأرضية».

- وعربات الإطفاء؟

- ليست كلّها معطَّلة.

- لذلك فإنّ الطائرات الجوية هي تلك التي تطير، أمّا الطائرات الأرضية، فتلك التي لا تطير.

- بالضبط.

- ولكن يجب علينا إذًا أن نقسِّم الطائرات إلى صنفين إضافيين؛ إذ تصَّنف الطائرات الجوية إلى طائرات جوية — أرضية، وطائرات أرضية — أرضية.

- كيف ذلك؟

- لقد أرسينا معيارًا مرجعيًّا: مترًا وخمسة وسبعون سنتمترًا. الإطفائيون الذي يقلُّ طولهم عن متر وخمسة وسبعين سنتمترًا يصنَّفون كطائرات أرضية - أرضية. فهم لا ينقضُّون على الحريق من الأعلى أبدًا.

- حسنًا.

- أما الإطفائيون الذين يزيد طولهم على متر وخمسة وسبعين سنتمترًا فيصنّفون تبعًا لذلك كصِنف طائرات جوية ضمن فئة الطائرات الأرضية.

- حسنًا.

- وإذا ما أخذنا في الحسبان مواردنا البشرية، والإدارة

المسؤولة عن الارتفاعات، فقد قررنا أيضًا بأنه يحقّ فقط للإطفائيين الذين يقلُّ طولهم عن متر وخمسة وسبعين سنتمترًا الدخول إلى الحوَّامة. ومن ثمّ، يكون لدينا على أرض الواقع عدد أكبر ظاهريًا من الطائرات الأرضية، ولكنها من الفئة الجوية.

- يا لَه من قرار إستراتيجي حكيم!

- نعم.

تمتم الزعيم، فجأة:

- لكن هناك مشكلة واحدة فقط.

سكَت الجميع. كان الزعيم يتأمّل في المسألة رافعًا إحدى ذراعيه.

قال الزعيم:

- تكمن المشكلة في أنَّه، إذا ما عددنا الإطفائيين طائرات أرضية، فسيكون لدينا فعليًا فائضٌ في الموارد الجوية.

- نعم؟

- ولكننا سنصبح والحالة هذه دون أي موارد أرضية!

- ياه، يا حضرة الزعيم، لم نفكِّرْ بذلك!

التقى بعض الجيران مصادفةً بالسيد كراوس. قال له أحدهم:

- أنا لا أفوِّت قراءة سرديّاتك الإخبارية في الجريدة...

ولكن وقبل أن يكملوا حديثهم معه، ابتسم السيد كراوس، وعبَّر عن تقديره لذلك الثناء بحركة خفيفة من رأسه، وتمتم بنصف حفنة من الكلمات المهذبة، وأكمل طريقه قائلًا:

- لقد تأخَّرت! المعذرة.

قال السيد كراوس في ذلك اليوم، وهو يغادر مبتعدًا، وهو على شفير الصراخ:

- يمكن استعمال مسدسٍ على الأقل، من المنطقي ألَّا يستعمل المرء سيفًا في القرن الحادي والعشرين! ولكن مسدس على أقل تقدير.

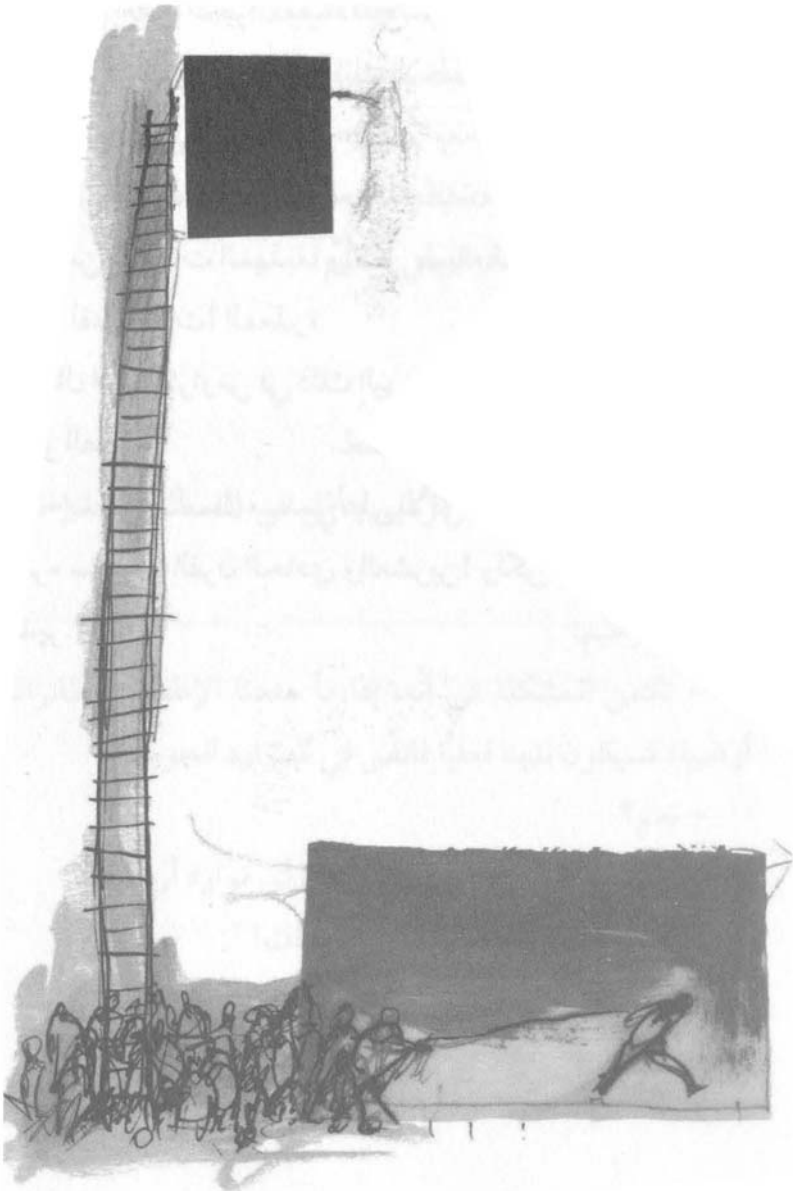

الزعيم الذي يتفنّن بضرب الأمثلة

كان الزعيم مولعًا بضرب الأمثلة. ولكن، بغض النظر عن ذلك، لم يكن مولعًا بإعطاء أي شيء لأي كان.

عندما كان يقترب منه شخص بائس قائلًا:

- أريد بعض الأموال لأستثمرها في شركتي.

كان الزعيم يرد من فوره بجملة واحدة:

- انظر، على سبيل المثال...

ومن ثم يدخل في معمعة خطاب طويل، حيث سيضرب فيه، في واقع الأمر، الأمثلة.

وعندما يعود البائس إلى بيته، تسأله زوجته:

- تحدَّثتَ مع حضرة الزعيم إذًا، وهل قدَّم لك الدعم؟

أجاب الرجل:

- بل ضرب لي مثالًا.

وفي مناسبات أخرى، طلب البؤساء طلبات واقعية جدًا من الزعيم.

على سبيل المثال، طلبوا منه أن يأمر بإصلاح حفرة صرف صحي في الطريق؛ لأنها كانت قد تسبّبت بالعديد من الحوادث.

- يا حضرة الزعيم، هل من الممكن أن تصدروا أوامركم

بإصلاح حفرة الصرف الصحي؟ إنها خطرة! ولن يكلف إصلاحها الكثير من المال. سيتطلب إصلاحها ساعتين فقط.

وحتى مع مثل هذه الطلبات، لم يكن الزعيم يتوقّف عن ضرب الأمثلة:

- المسألة ليست بتلك السهولة، أتفهمون...

كان يبدأ ردَّه هكذا، ثم يمضي ليقول جملته المعهودة:

- انظروا، على سبيل المثال...

ومن ثم كان يضرب مثاله.

ونتيجة لذلك كانت الأحاديث التي دارت بين الناس لدى عودتهم لبيوتهم بعد التحدث مع الزعيم أحاديثَ مكررة إلى حد ما.

- إذًا، هل أصدر الزعيم أوامره للبدء بإجراء إصلاحات للطريق؟

- لا، ولكنه ضرب لي مثالًا.

إن دفع ضرائب أكثر أمر جيد جدًّا لأولئك الذين يدفعون ضرائب أكثر

1

- أساسًا، المشكلة...

- بالضبط، حضرة الزعيم. أساسًا!

سعَل الزعيم، كان في منتصف الجملة -ولكن اللحظة المناسبة لم تكن قد حانت بعد للمقاطعات الخنوعة.

عاود الزعيم خطابه ثانية، مضطربًا:

- أساسًا، المشكلة هي مشكلة في القناعات، وليست في المال.

تمتم المساعد الأول:

- مشكلة في القناعات، حضرة الزعيم؟

- نعم، في القناعات. يجب أن ننقل للشعب فكرة مفادها أن الضرائب تحمل في طيّاتها الخير لدافعيها. فكلما دفعوا ضرائب أكثر، كان ذلك في صالحهم. هذه هي الفكرة التي يجب أن يقتنعوا بها.

- أوه، حضرة الزعيم...

- ويجب أن ننقل لهم هذه الفكرة بطريقة بيداغوجية؛ وأن نستخدم في ذلك أيضًا، كلَّما أمكن ذلك، صيغًا ونظريات اقتصادية معقّدة.

تمتم المساعد الأول:

- ولكن أليس هذا ما نفعله باستمرار؟

ثم سأل المساعدُ الثاني، وفرائصه ترتعد خوفًا:

- ألا يكفي التعقيد الذي نطبِّقه حاليًا؟

قال الزعيم من فوره:

- هنا مربِط الفرس تحديدًا. أنت أحيانًا تسهِّل الأشياء، وهذا أمرٌ فيه الكثير من العسف.

تفلسف أحد المساعدَين قائلًا في الحال:

- الحياة ليست سهلة أبدًا.

- بالضبط. يجب علينا إذًا أن نستثمر أكثر في الترويج التقني والمبهم. يجب أن نستثمر أكثر في التعقيد.

- يجب أن نوظِّف مزيدًا من الخبراء الاقتصاديين!

- تمامًا.

2

- المسألة سهلة؛ تساهم الضرائب في تحسين مستويات معيشة الأمة. صحيح؟

- صحيح.

- ولذلك...

- ولذلك كلَّما دفع الفرد ضرائبَ أكثر، كلما تحسّنت أكثر مستويات معيشة الأمة.

- أي بعبارة أخرى...

- بعبارة أخرى: كلما قلَّ المال الذي يملكه الشخص ليعيش به شهريًا -نتيجة دفعه ضرائب أكثر- كلما زادَ المال الذي تملكه الأمة عمومًا. وعلى أكثر تقدير، عندما يشتري الفرد بعض الخبز والزبدة ويأكلهما، فهو، من وجهة نظر موضوعية، إنَّما يسرق الخبز والزبدة من الأمة.

- بعبارة أخرى: كلما ساءت طريقة عيش كل مواطن من المواطنين، كلَّما كان ذلك في صالح الأمة.

- بالضبط.

صاح المساعد الأول:

- عاشت الأمة إذًا!

وافقه المساعد الثاني الرأي.

- ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل نحن هنا لنخدم مصالح كل مواطن على حدة أم مصالح الأمة جمعاء؟

صاح المساعدان بنبرة صوت واحدة:

- مصالح الأمة جمعاء، حضرة الزعيم!

ثم كرَّرا ما قالاه، وذراعاهما مرفوعتان:

- الأمة جمعاء! الأمة جمعاء!

وقال المساعد الأول بإصرار:

- والأمة تنتمي للجميع!

- بالضبط. للجميع!

- بناءً على ذلك، إذا كانت أهدافنا الوطنية تحسين مستويات معيشة الأمة، فما يجب علينا فعله هو أن...

- نجعل مستويات المعيشة سيئة لكل مواطن من مواطنينا.

- تمامًا.

قال السيد كراوس:

- يفهم بعض السياسيين كلمة «الشعب» وكأنَّها أحد أسمائهم المستعارة.

ثم تمتم قائلًا:

- قال ديمقراطية قال!

ثم صمت.

ثم ما لبث أن أضاف:

- إذا ما استخدمنا لغة إحصائية متفائلة، إذا قرّر الإنسان العادي أربع قرارات بناءً على ذكائه، وأربع قرارات أخرى تاركًا الأمر للمصادفة، فلديه أربع فرص لاتخاذ قرارات صحيحة.

أومأ جاره، السيد هنري، برأسه موافقًا إياه على ما قال.

قائمة المحتويات

1

دخلت لجنة ضخمة من الخبراء الاقتصاديين إلى القاعات المركزية. أحضرت اللجنة معها تقريرًا عملاقًا. كان التقرير عبارة عن مجموعة من التنبؤات الاقتصادية. كان التقرير شرحًا لحالة اقتصاد الأمة، بتفاصيل مسهبة. احتاج إعداد التقرير ثلاثة أشهر من العمل الذي انهمك فيه ما ينوف يزيد على اثنين وثلاثين ألفًا من الخبراء الاقتصاديين. صحيح أنهم تقاضَوا أتعابًا مجزية على ذلك، ولكنهم كانوا يستحقونها؛ إذْ أثمرت جهودهم عن تقرير يحتوي على أكثر من ستمئة صفحة، وقائمة محتويات.

فتح الزعيم التقرير على صفحة قائمة المحتويات، وقال متفاجئًا:

- إن قائمة المحتويات ذات أهمية عظيمة، فهي تجعل من دراسة التقرير أسهل بكثير.

وافقه رئيس لجنة الخبراء الاقتصاديين قائلًا:

- إنها تقدّم مساعدة كبيرة. إذْ يمكنك أن تجد هنا الموضوع المطروح وهناك، على بعد مسافة قليلة، تجد رقم الصفحة.

دهش الزعيم قائلًا:

- يا لها من فكرة رائعة!

- لقد استُخدِمتْ قائمة المحتويات سابقًا في أعمال أخرى أنجزها أشخاص آخرون؛ كما أنها تستخدم خارج الوسط السياسي. بل حتى أنها تستخدم في بلدان أخرى. عندما تكون التقارير كبيرة جدًا، يوجد حتى إشارات مفصَّلة لأرقام الصفحات، بحيث لا يضيِّع القرَّاء الكثير من الوقت لإيجاد الموضوع الذي يهمهم.

دهش الزعيم. قضية قائمة المحتويات. يا لَها من فكرة! كان محاطًا بلا شكّ بأفضل صِنف بين بني البشر، ومن غيرهم! الخبراء الاقتصاديون!

قال الزعيم بإصرار:

- مذهل، قائمة المحتويات هذه مذهلة.

ثم مرر سبَّابته فوق كامل صفحة التقرير الأولى، من اليسار إلى اليمين، ومن الأعلى إلى الأسفل، مع حركات دقيقة كتلك التي تصدر عن كفيف البصر وهو يتحسّس أحرف كتابة نافرة.

تمتم الزعيم، الذي لا يزال متحمسًا:

- هنا، على سبيل المثال، إذا كنا مهتمين بموضوع «الفقر المنتشر على نطاق واسع»، يمكننا الذهاب إلى المحتويات وأستطيع أن أجد الموضوع هنا: في الصفحة 322. يا له من أمر مذهل! الفقر المنتشر على نطاق واسع: الصفحة 322. إن قائمة المحتويات فكرة رائعة!

- إنها قائمة المحتويات، حضرة الزعيم.

2

تابع الزعيم افتتانه بقائمة محتويات التقرير الاقتصادي.

- قائمة مذهلة!

تمتم أحدهم من الخلف، وقد أصابه الضيق:

- قائمة المحتويات مفيدة، بلا شكّ، ولكنها ليست سوى قائمة محتويات.

همس أحد المساعدَين لرئيس لجنة الخبراء الاقتصاديين، الذي بلغ من اليأس مبلغًا في تلك اللحظة:

- المهم في الأمر أن الزعيم يحبّ شيئًا ما.

كان الخبراء قد أعدُّوا التقرير عن كل مشكلات الأمة، وقد ضمَّنوه آلاف العمليات الحسابية وبحارًا من الأرقام والحلول العملية والنظرية. ولم يكترث الزعيم بكل ذلك. كان مسحورًا بقائمة المحتويات، كان منتشيًا كنشوة أول إنسان سمع صوت الهاتف وهو يعمل.

حاول رئيس لجنة الخبراء الاقتصاديين، الذي بدأ صبره ينفد رويدًا رويدًا، أن يضبط نفسه قائلًا:

- المسألة مسألة تنظيم. إنها قائمة محتويات، لا قيمة لها. ولكن ما هو أهم من ذلك أننا قدَّمنا بين دفتي التقرير أربعة

مقترحات أساسية لحل مشكلة الفقر في الأمة.

أثناء كلامه، حاول بيديه، وإنْ كان على نحو لطيف دائمًا، أن يجبر الزعيم على فتح الصفحات الواقعة في منتصف التقرير.

على كل حال، لم يكن الزعيم ليفسح له المجال لتحقيق مراده، حيث كان يرد على محاولاته تلك بقوة صارمة. وظل التقرير مفتوحًا على صفحة قائمة المحتويات حتى انتهاء الجلسة.

- صفحة المحتويات مهمة جدًا...

قال الزعيم بإصرار، مبقيًا يديه بثبات وإحكام على صفحة قائمة المحتويات، وبدا أنه لم يسمع أي شيء على الإطلاق. ثم أردف قائلًا:

- فهي مثال عن التنظيم الذي يجب تطبيقه على الأمة جمعاء. يجب تطبيقه على كل شيء؛ من القمة حتى القاعدة، من اليسار إلى اليمين. يجب أن يكون للأمة جمعاء قائمة محتويات.

- لدينا أربعة مقترحات. هذا ما قاله أحدهم ممّن غامر بالكلام، ولكن صوته خبا من فوره.

تمتم رئيس اللجنة، الذي كان قد استسلم سلفًا، وذراعاه متدليتان:

- إنها مجرد قائمة محتويات.

ثم سأل أحدُ المساعدَين في النهاية:

- حضرة الزعيم، هل يجب علي أن أرسل التقرير إلى وزارة التربية؟

كان السيد كراوس قد سلَّم آخر سردياته الإخبارية للجريدة. أوشك اليوم على الانتهاء، مثله مثل البارحة، وسيظهر خلال مدة قصيرة زعيم جديد في العالم يتبعه زعيم آخر ثم آخر وهلُّم جرَّه. على أي حال، تجري المسألة دائمًا على المنوال ذاته.

السقوط

كان يومًا من الأيام الباردة وأصبح التنفس بمثابة قانون عام يطبّقه الجميع.

قال الزعيم:

- لا أحد يتنفس تنفُّسًا مكتومًا في هذه الأيام القارسة البرد.

وكان محقًّا في ذلك، فإذا زَفَر المرء، كان النَفَس يترك أثره في الهواء، وكأنَّ الهواء مصبوغٌ أو مطبوعٌ بلونٍ آخر. في مثل هذه الأيام الباردة لم يعد التنفس عملًا خصوصيًا أو شيئًا يشترك به العشَّاق فقط. غدا التنفس كالخطابات، باستثناء أنه كان يتمّ بصوت أخفض بكثير من أصواتها.

- أصبح الزفير شبه منتشر كالغناء.

- صحيح.

قال الزعيم:

- كصوتٍ دون كلام.

قال المساعد فجأة، وكأنه تذكر من فوره شيئًا ما:

- ولكنْ لنَفَسِك صوتٌ مسموع، في الواقع، نَفَسُك يبدو رائعًا.

تابع المساعد:

- فخامتكم، في الأيام الباردة كهذا اليوم، لستم بحاجة حتى

لأن تنطقوا بأي كلمة. فبمجرد النظر إلى النفَس المنبعث من جوف فخامتكم يبدو جليًا أنه في حال لم يقرر فخامتكم الكلام، فإنكم ستتكلمون كلامًا أبلغ من أي كلام قيل سابقًا. إن نفَسَكم رائع!

شكره الزعيم، محاولًا أن يقدم تعبيرًا متواضعًا من خلال حركات وجهه. فقد كان جيّدًا في مثل هذه المسائل. كان الزعيم كمهرِّجي السيرك؛ بارعًا في فنون التعبير بالوجه. وكان يحتفظ بتلك التعابير ملفوفة في مكان ما، كمن يحتفظ بقصاصات ورقية صغيرة في جيوبه مسجلًا عليها أرقام هواتف. فعندما يحتاج أحد تلك الأرقام، فكل ما عليه هو أن يجد قصاصة الورق الصحيحة في جيوبه. كذلك كان الحال بالنسبة للزعيم، فكان يبحث عن التعبير المناسب للحظة داخل أعماقه. وتطلَّب منه الأمر فقط حوالي جزء من الألف من الثانية ليجد التعبير المناسب. كان متمرِّسًا في ذلك.

قال للمساعد:

- أنت تبالغ.

- لا، لا، نفَسُكُم رائع. لا أحد يزفر النَفَس كما تفعلون!

في الحقيقة، كان الزعيم يستمع لتلك الكلمات كمن يستمع إلى بديهيات لا نقاش فيها؛ كمن يستمع لشخص يقول إنَّ اثنين زائد اثنين يساوي أربعة؛ كشخص يوضح الواضح من الأمور، فقد كان الزعيم ممتازًا من وجهات النظر كافة، وتنفُّسه -وخصوصًا

زفير أنفاسه- كان رائعًا! شعر بطريقة معينة بأن العالم، ولا نعني به العالم من وجهة النظر العامة، ولكن العالم الواقعي والطبيعة ومكونات الغلاف الجوي يجب عليها معًا -لو قدِّر لها أن تتكلم وكانت ذات تربية وتهذيب- أن تشكره على تلك الطريقة المدهشة في إخراج ثاني أوكسيد الكربون.

قال الزعيم في قرارة نفسه:

- ما من أحد يُخْرِج ثاني أكسيد الكربون كما أخرجه أنا.

على كل حال، وفي حديثه مع المحيطين به، تابع الزعيم إطلاق عبارات الدهشة التي أراد منها القول بأنه متواضع:

- أنت تبالغ، أيها المساعد. فما أزفره ليس سوى هواء. الأمر واضح.

صاح المساعد:

- هواء؟! لا، أبدًا. أنتم تزفرون شيئًا آخر. يوجد شيء مدهش يتعلق بالطريقة التي يتميز بها زفيركم عن بقية عناصر الغلاف الجوي؛ زفيركم فيه أثرٌ من الحكايا المِثولوجية القديمة. هناك شيء سرِّي وغامض في طريقة زفركم لأنفاسكم.

كان الزعيم مستمتعًا وهو يصغي لمساعده، كانت موسيقى المديح تهدهده بسرور، إنْ جاز التعبير. في الواقع، كانوا قد صعدوا الدرَج نحو الطابق الرابع وبالكاد لاحظ الزعيم أنهم فعلوا ذلك.

ثُمَّ، وفي تلك اللحظة بالذات، اكتشف الزعيم قانونًا يمزج بين

عالمي الفيزيولوجيا وعلم النفْس؛ القانون ينص على أن المديح يجعل المرء ينسى التعب الشديد.

فكر الزعيم في قرارة نفسه:

- لو كيل المديح والثناء على أحدهم في كل خطوة يخطوها، لأمكنه الصعود إلى قمة برج إيفل على قدميه بكل سهولة ويسر.

كان مسحورًا بهذه الفكرة حتى إنه توقَّف حتى يتسنّى له تدوينها في مفكّرته. وعندما سيتوفّر لديه الوقت، سيبيع ذلك السطر من سطور المنطق والحكمة للرياضيين الذين طالما احتاجوها.

المشهد الأخير

كان الزعيم ومساعداه قد وصلا إلى شرفة الطابق الرابع، وقفوا مواجِهين البرد. كان أحدُ المساعدَين قد طار صوابه من البهجة والفرح، لا بل إنه كان يثب وثبًا من الفرح إلى حد ما.

قال المساعد، وهو يشير بسبَّابته إلى زفير ثنائي أكسيد الكربون المنبعث من فم الزعيم:

- هل ترى، حضرة الزعيم، زفير أنفاسك. أترى هذا اللون؟! إنه مذهل! إنه رائع، رائع!

ابتسم الزعيم، ولكن بدا له أن مساعده قد بدأ بالمبالغة؛ فليكن، وماذا في ذلك بحق الجحيم. إنه الزعيم ويستحق ذلك. ولكن رئتيه وكل القصبات الأخرى المسؤولة عن طرد الهواء من داخل جسده ما هي إلا كرئة وقصبات أي إنسان آخر.

فكَّر في قرارة نفسه:

- أنا إنسان كأي إنسان آخر.

على كل حال، كان الزعيم يثق بمساعده. لو أنه قال بأن زفير أنفاسه كان رائعًا على وجه التحديد، فسبب ذلك أن زفيره كان فعلًا كذلك. ثم انحنى الزعيم نحو الأمام ليراقب بصورة أفضل زفير الهواء الخارج من فمه.

- نعم، هذا زفير غير عادي، ولكن...

قال المساعد:

- انظر إليه من كثب. انحنِ؛ ستراه بشكل أفضل إنْ اقتربتَ منه.

استمر الزعيم في فرحه، وقال:

- حقًا، يا لَه من شيء رائع، حتى زفير أنفاسي مميز، يا لَه من شيء رائع!

كان بطنه يضغط على الجزء العلوي من درابزين الشرفة، استمر بالانحناء نحو الأمام. كان يريد رؤية ما كان ينبعث من أعمق أعماق ذاته من كثب.

تابع المساعد قائلًا:

- هذا هو، عندما ينزل زفير أنفاسك من الأعلى، فإن شيئًا ما يخرج هناك معه... سُلْطَةٌ غير عادية!

كانا، كما ذكرنا سابقًا، على شرفة الطابق الرابع، ثم حصل ما حصل.

بينما كان المساعد في منتصف مديحه للزعيم، لم يتمكّن من منع حصول المأساة في الوقت المناسب. كان الزعيم يريد حقًا أن يرى كيف كانت أنفاسه تبدو عندما كان ينفثها نفثًا عموديًّا، من الأعلى نحو الأسفل. ولذا فقد انحنى أكثر للأمام. ومن ثم انحنى أكثر. وأكثر. وأكثر. وأكثر.

انحنى حتى وصل إلى نقطة اللاعودة؛ النقطة التي كان الرجوع منها محالًا، كان الأوان قد فات.

عن سلسلة "الحي"

فيليب غراهام

أستاذ الكتابة الإبداعية ومحرر روائي في مجلة نماينث لِتَر
جامعة إلينوي، أوربانا-تشامبين، الولايات المتحدة الأمريكية
مؤلف كتاب أيها القمر: أقبل إلى الأرض: رسائل من لشبونة

إن الترجمة الإنكليزية لسلسلة روايات «الحي» هي أول الغيث العميم لأحد أهم أعمال الكاتب البرتغالي غونزالو تافاريس وتقديمه لجمهور القراء في الولايات المتحدة الأمريكية. ويعتبر تافاريس أحد أعظم الكتاب البرتغاليين الأحياء. وبالرغم من بلوغه الأربعين منذ مدة وجيزة، فقد بنى لنفسه مكانة في تاريخ الأدب البرتغالي. ورغم أنه لا يزال غير معروفٍ نسبيًا في أمريكا الشمالية (حيث نشرت دار دولكي أركايف روايته القدس عام 2009)، إلَّا أنَّ أعماله حصدت عددًا كبيرًا من الجوائز، ناهيك عن ترجمتها وحصولها على الثناء والتقدير في أكثر من خمسة وأربعين بلدًا من بينها إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا والهند وبولندا وفرنسا وكوريا الجنوبية واليونان وألمانيا والأرجنتين. وتحوَّلت أعماله في بلده البرتغال إلى مسرحيات وترانيم دينية وعروض أوبرالية.

كان أول عهدي بالتعرف على أعمال تافاريس أثناء حضوري

المؤتمر الدولي التاسع للقصة القصيرة الذي عقد في العاصمة البرتغالية لشبونة في شهر يونيو من سنة 2006. كان الجميع يلهج باسم تافاريس في المؤتمر، فقد فاز بجائزة خوسيه ساراماغو الأدبية في العام الفائت وذلك عن روايته الثالثة «القدس» – كما أن ساراماغو نفسه، وهو الحاصل على جائزة نوبل للآداب، لم يتورَّع أبدًا عن كيل المديح والثناء لتافاريس حين قال: «إن رواية «القدس» رواية عظيمة، وتستحق بجدارة أن تنال مكانتها ضمن الأعمال العظيمة في الأدب الغربي. قد لا يستطيع أي شخص كان أن يكتب بمثل تلك الجودة والبراعة التي يكتب بها تافاريس وهو في سن الخامسة والثلاثين. لذا أشعر برغبتي في لكمه في وجهه غيرةً وغبطة!»

وعندما حضرتُ الأمسية التي قدَّم فيها تافاريس قراءات من قصصه في مؤتمر لشبونة الأدبي، استمتعت للمرة الأولى لمختارات من السلسلة الروائية المعروفة بالبرتغالية بعنوان (Os Senhores) والتي ترجمت إلى الإنكليزية بعنوان (The Misters) أي «السادة»؛ وهي مجموعة الروايات القصيرة التي تشكل بمجموعها سلسلة كتاب «الحي». وقد أدهشني على الفور الإيجاز والجزالة اللذان يميِّزان أسلوبه الكتابي. وقبل توجهي للبرتغال لحضور فعاليات المؤتمر المذكور، طلبتْ مني هيئة

تحرير المجلة الأدبية المعروفة باسم هنْغَر ماونتن أن أساهم في إعداد ملف خاص عن الأدب الروائي البرتغالي المعاصر يضم بين دفتيه الكتَّاب الذين صادفتُهم في المؤتمر. ولهذا لجأت إلى أسهل قرار يمكن للمرء أن يتخذه بأن ضمَّنتُ ذلك الملف خمس قصص قصيرة من كتاب السيد هنري وست قصص أخرى من كتاب السيد بريشت وهما من ضمن سلسلة «الحي» التي ألَّفها تافاريس. وباعتباري المحرر الأدبي لمجلة نايَنث لِتَر التي تعني بشؤون الأدب والفن، فقد قمت أيضًا باختيار خمسة أعمال مختارة للنشر من رواية السيد فاليري. وهذه النصوص المحدودة تمثل الانطلاقة الأولى لظهور أعمال تافاريس باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية. أما الآن، وفي ظل هذه الترجمة الضخمة التي بين أيدينا، والصادرة عن مطبعة جامعة تكساس التقنية، فستتاح لجمهور القرَّاء في أمريكا الفرصة للاستمتاع ببراعة العالم الخيالي الفريد الذي يصوغه تافاريس من خلال ولادة هذا النص الأنيق الذي خطت ترجمته الإنكليزية البديعة أنامل المترجمة روبانجالي روي.

وقد يكون خليق بنا أن نعرِّف القارئ الذي لم يسبق له الاطلاع على أعمال تافاريس الكاملة من خلال مناقشة الرسومات التي أبدعتها زوجة تافاريس وشريكته في الأعمال الأدبية لمدة طويلة،

الفنانة راتشيل كايانو، وخصوصًا اللوحة التي رسمتها التي تمثِّل خريطة الحي، حيث تظهر فيها الشوارع الضيقة والمباني المتلاصقة التي تمثِّل حيًا تقليديًا في مدينة لشبونة. وقد رسمتْ كايانو في خريطتها التي أبدعتها في الطبعات الأولى من سلسلة «الحي» أربع شخصيات فقط من سكان الحي وهم السيد فاليري والسيد هنري والسيد بريشت والسيد خواروز، مع العديد من الشقق المحيطة بهم وهي فارغة من ساكنيها. ومع اتساع رقعة مشروع تافاريس الروائي، أضاف إلى الحي كل من السيد كالفينو والسيد كراوس ومن ثم السيد فالْسِر. وحتى تاريخ كتابة هذه السطور ينتشر، لحسن الحظ، على الخريطة التي رسمتها كايانو تسعة وثلاثون اسمًا. وبالرغم من أن عشرة من هؤلاء السادة فقط قد ظهروا حتى الآن بشكل كتب مستقلة (وبعضها ما يزال بانتظار ترجمته للإنكليزية)، فهي تمثِّل بمكنوناتها النمو المتواصل لسلسلة «الحي» في المستقبل.

أما بالنسبة لرسومات كايانو الموجودة في داخل كتب السلسلة، فتعكس أساليبها الفنية المتبدلة ما يضمه كل كتاب من كتب السلسلة من ذلك الجمع الفريد بين الغرائبية الطريفة والجدية. ويبدو العديد من تلك الرسومات بحق مرتبطًا ارتباطًا عضويًا معقدًا بكل قصة على حدة، ومن أمثلة ذلك الحزن الرهيف

لدُرْج خزانة السيد خواروز المملوء بالفراغ؛ أو الخطوط الإضافية للقبعة المستديرة التي يعتمرها السيد فاليري؛ أو الظلال العريضة المحيِّرة لمكتب المدير في قصة السيد كراوس؛ أو الخربشات الجنونية التي تخطط التفكيك الودي للمنزل الريفي للسيد فالْسِر.

ولا بدَّ أن قارئ هذه المقدمة قد لاحظ بالتأكيد أن كافة السادة يستدعون في الذاكرة شخصيات أدبية بارزة. إذ تمارس تلك الشخصيات أدوارها الروائية، إلى حد ما، في نطاق ما نعتقد أننا نعرفه من معلومات عن تلك القامات الأدبية، والأهم من ذلك ما نعرفه عن كتاباتهم. فالسيد كالفينو بالطبع هو النسخة الأدبية عن كاتب الحكايات الإيطالي إتالو كالفينو؛ أما السيد فاليري ففيه تلميح للشاعر والناقد الفرنسي بول فاليري؛ أما السيد خواروز فهو نسخة ما من الشاعر الأرجنتيني روبرتو خواروز؛ والسيد فالْسِر عاشق العزلة (إذْ قد يلاحظ المرء بأن بيته يقع على مسافة بعيدة من المباني السكنية الأخرى الموجودة على خريطة الحي التي رسمتها كايانو) يمثل روبرت فالْسِر، الكاتب السويسري المأزوم نفسيًا الذي أدمن السير وحيدًا لمسافات طويلة؛ وتعكس قصص السيد كراوس النقمة السياسية واللغوية للكاتب النمساوي كارل كرواس، أما النفس المخمورة للسيد هنري فهي شذرة منبثقة من شخصية الكاتب هنري ميشو الذي ينتمي للسورياليين الجدد والذي عكف

على تجريب شتى أنواع المخدرات أملًا منه في اكتشاف العوالم الداخلية للإنسان. ورغم ما سقناه من إرهاصات لتشابه شخصيات الحي مع شخصيات أدبية حقيقية، فإن كتب سلسلة «الحي» لا تقتصر على إرسال رسالة مباشرة عن تلك الإرهاصات، ولكنها بدلًا من ذلك تفضي بنا إلى مآلات واحتمالات مختلفة - منها الشخصي ومنها الفلسفي - الناتجة عن المعرفة الأساسية بهؤلاء الكتَّاب الذين شكَّلوا مصدر إلهام لتافاريس. وستسيطر مشاعر الحبور والسرور بلا شك على القرَّاء الذين يعرفون عز المعرفة أعمال الشاعر الأرجنتيني روبرتو خواروز من خلال الإشارة الخفية التي يلمِّح بها تافاريس لما يسمى «بالشعر العمودي» الذي يميِّز ذلك الشاعر عندما يقول السيد خواروز في حكاية «الحي» (حيث يخاف السيد خواروز من صعود السلالم النقَّالة): «إذا ما أخذنا في الحسبان بأن السقوط ليس سوى تغيير بسيط في الموقع؛ أو تغيير في وضعية الجسم على طول مسار السقوط العمودي، فحينها لن يكون السقوط مرعبًا جدًا». بيدَ أن هذه المعرفة الداخلية ليست ضرورية للاستمتاع بالفصل الذي عنوانه «السقوط» في رواية السيد جواروز. والشيء بالشيء يذكر، إذ لا نحتاج لأن يعرف بأن كارل كراوس كان يعتقد بأن سوء استخدام اللغة يعادل سوء استخدام السلطة لكي نستمتع بتلاعب المدير بالكلمات في

رواية السيد كراوس، حيث يتبادل المدير الشديد الحرص الحوار التالي مع أحد مساعديه:

«لا يكفي الحصول على آراء الآخرين؛ بل من الضروري تفسير تلك الآراء. فحتى عندما يرسمون مجرد إشارة صليب، يجب أن نعرف ماذا يقصدون؟ ينبغي لكل رأي شخصي أن يفسَّر باستخدام عدسة مكبرة، وأنَّى لأحدٍ أن يقوم بذلك غير أولي العلم وأهل الاختصاص.

«أولئك الذين...؟»

«أولئك الذين أسميهم: أهل الاختصاص في ذاتي البشرية.»

وهكذا لا نتفاجئ بأن المدير يعلن على الفور بأن أفضل هؤلاء المختصين في النفس البشرية هو الشخص نفسه، إذ نجده يقول: «إنه أنا، نعم أنا! أنا من سيفسر تفسيرًا موضوعيًا الآراء غير الموضوعية التي يتبناها الآخرون.»

وفي حين أن سخرية معيَّنة، بارعة المواربة، مشوبة بالمرارة كهذا المثال الذي ذكرناه آنفًا، تخلق جوًا يميز كتب سلسلة «الحي»، فهي سخرية دائمًا ما تقترن مع حكمة فلسفية وجدية عميقة في مدلولاتها. ويمكن قراءة قصص روايات سلسلة «الحي» بحد ذاتها قراءة سريعة، ولكنها تظل بحاجة إلى اهتمام وقراءة ثانية بنسق أقل بطئًا. وفي العديد من المواضع، ترشد تلك الروايات

القارئ إلى سبل قراءتها. فالحس الفكاهي يحثنا على الغور في القراءة، ولكننا ما نلبث أن نفهم رويدًا رويدًا بأن ذلك الحس الفكاهي يشبه ألغازًا لا حلول لها تسيطر على العالم؛ حس فكاهي تُقدَّم فيه الحماقات الشخصية والمنطقية والسياسية بطريقة تبدو فيها وكأنها تفكك ذاتها، مع الاحتفاظ بشكل مذهل ببنيانها قائمًا متينًا. إذ نرى بأن السيد خواروز، الذي يرى أن التفكير أرفع شأنًا من الانخراط الحسي في العالم، يمتلك دُرْج خزانة أثيرٌ على قلبه وقد ملأه بالفراغ، بسبب الإحباط المسيطر على زوجته الصبورة. أما السيد فاليري فهو قصير القامة، ولكن ونظرًا لأنه يقفز كثيرًا، كان بإمكانه أن يزعم قائلًا «أنا ككل الرجال الطوال القامة، باستثناء أنني طويل لمدة زمنية أقصر منهم».

وتتجلى عبقرية كتاب تافارايس في أنه يُسْبِغُ على أفكاره العميقة أسلوبًا سهلًا جزلًا بطريقة موارِبة، مما يمكِّنه من نيل رضا وإعجاب جمهور غفير من القرَّاء. وللدلالة على ذلك دعوني أروي لكم القصة التالية كحجة على ما أقول. فقد أُغْرِمت ابنتي حنَّا، التي كانت في الحادية عشرة من عمرها عندما أقمتُ وعائلتي لمدة سنة واحدة في البرتغال، بكتابات تافاريس. وكان تافاريس في غاية اللطف عندما وافق على قراءة مجموعة من كتاباته في المدرسة البرتغالية حيث كانت تدرس، وعندما وصل إلى المدرسة قدَّم

له طلاب الصف السادس عرضًا كمفاجأة له، حيث قاموا بتقديم أداء تمثيلي مفعم بالحماس والحيوية للعديد من القصص الواردة في سلسلة «الحي». وقد ذهلتُ ذهولًا عظيمًا بالتأثير الذي تركته كتاباته على الصغار قبل الكبار، رغم عدم معرفتهم علم اليقين بالشخوص الحقيقة التي يرمز إليها كل من السيد خواروز أو فاليري أو غيرهم من شخصيات المجموعة.

وكما يرى معظم النقاد، يعدُّ التخيل المدهش لتافاريس من خلال التقمص البلاغي لشخصيات عمله لبعضٍ من أعظم الكتَّاب ممن ينتمون إلى عصر الحداثة وما بعدها مشروعًا متأصلًا أصالة ثابتة الجذور. ومع ذلك يمكن القول بأن السيدين «الحقيقيين» فاليري وهنري كانا الملهمين الأساسيين لسلسلة روايات «الحي» التي ما فتئ مبدعها يرفدها بشخصيات جديدة؛ دون أن ننسى أيضًا أنهما ملهمين أيضًا، بشكل ينطوي على قدر من السخرية، من خلال شخصيتيهما اللتين ابتكرهما تافاريس ابتكارًا. وإذا ما تأملنا الشخصية الرئيسة في رواية السيد تيست، وهي الرواية الوحيدة التي كتبها بول فاليري، نجد أن السيد تيست رجل لطيف على درجة مفرطة من الخجل وهو يحاول العيش في ظلال مبادئه الفكرية، وكذلك شخصية بلوم التي أبدعها هنري ميشو في مجموعته الشعرية النثرية المسمَّاة ريشة، سنجد أن

هاتين الشخصيتين تشتركان في الكثير من النقاط مع شخصيتي السيد هنري وفاليري الأنيقتين في «الحي». فهما شخصيتان مضطربتان، ومع ذلك تتحليان بالحكمة بشكل يثير الدهشة. فعلى سبيل المثال، نجد في إحدى القصائد النثرية لميشو، وعنوانها «رجل مغلوب على أمره» أن بلوم يستيقظ ليكتشف بأن جدران بيته اختفت، بيد أن ذلك الأمر لا يترك فيه سوى أثر لا يكاد يذكر إذْ ما يلبث أن يتابع نومه. وعندما يستيقظ مرة أخرى، يمر قطار فوقه وفوق زوجته، ولكنه يخلد للنوم على ذات المنوال الآنف الذكر. وعند استيقاظه مرة أخرى، يكتشف بأن أجزاءً من جسد زوجته لا تزال هناك وقد تركها القطار العابر، ولكن النعاس يغلب جفونه مرة أخرى. إن رباطة الجأش (الناعسة تلك) التي يواجه بها بلوم الكوارث التي تحصل في التناقض الصارخ بين الحلم وعوالم اليقظة تحيلنا إلى قصة «الحلم الأول للسيد كالفينو» في سلسلة الحي، إذ يتمكن السيد كالفينو أثناء سقوطه من بناء ارتفاعه ثلاثين طابقًا من ربط أنشوطة حذائه وربطة عنقه قبل لحظات من «ملامسة الأرض سليمًا معافى». أما في رواية السيد هنري فنجد أن هنري في قصة «النظرية» يقدِّم قفزات منطقية ربما تكون مصدر فخر للسيد تيست، وها أنذا أسوق لكم ذلك المقطع كاملًا من القصة المذكورة:

قال السيد هنري:

- اخترع الهاتف ليتسنى للناس التحدث مع بعضهم من مسافات بعيدة. واخترع الهاتف ليبعد الناس عن بعضهم البعض، وشأنه في ذلك شأن الطائرات. فقد اخترعت الطائرات بحيث يستطيع الناس العيش بعيدين عن بعضهم. لو لم توجد الهواتف والطائرات لعاش الناس معًا.

وتابع قائلًا:

- هذه مجرد نظرية، ولكن فكروا بها، يا أصدقائي. ما يحتاج المرء القيام به هو أن يفكر في اللحظة المناسبة التي لا يتوقعها الناس. تلك هي الطريقة التي تفاجؤونهم بها.

وقد يكون السطران الأخيران تعريفًا عمليا للنهج الذي يتبعه تافاريس القائم على إرباك القارئ في كل صفحة من صفحات كتاب «الحي».

وأيًا تكن تأثيراته، فقد شيَّد غونزالو تافاريس لنفسه بنيانًا خياليًا لا يشبه أبدًا أي بنيان لأي كاتب برتغالي آخر. ومع ذلك تبقى حساسيته الأدبية متجذرة تجذرًا عميقًا في ثقافة بلده، ناهيك عن تجذرها خصوصًا في الحب والاحترام اللَّذين يكنُّهما للكتَّاب. إن أسماء الشعراء والكتاب، المعاصرين منهم والكلاسيكيين، غالبًا ما يتم تقديمها بشكل أسئلة في برامج المسابقات التلفزيونية في

البرتغال. كما تهتم الصحف والمجلات بتقديم محفزات لشراء نسخها بشكل عملات معدنية قابلة للجمع تحفر عليها وجوه المؤلفين، أو تصدر طبعات بعدد نسخ محدود من آخر الأعمال الشعرية لشاعر من الشعراء. عندما أقمتُ في لشبونة كان أشهر برنامج مسابقات تلفزيونية هو برنامج تلفزيون الواقع المسمى (A Bella e o Mestre) حيث أن ثلاثة من أعضاء لجنة التحكيم البالغ عددهم أربعة هم من الكتَّاب. وقد أصبح شاعر القرن العشرين العظيم فرناندو بيسوا بعد وفاته أشبه ما يكون ببطل قومي في البرتغال، حيث استمرت طبعات جديدة من أعماله في الظهور عدا عن انتشار صوره على القمصان وأكواب القهوة وحمَّالات المفاتيح والدفاتر وفواصل الكتب وقطع البورسلان المزخرف، لا بلْ إن صوره تعدَّت كل تلك الأشياء حتى رسمها البعض على لوحات التنبيه بعدم الإزعاج التي تعلَّق على أبواب الغرف والتي احتوت على اقتباسات من شعره (ويوجد واحدة منها على باب غرفتي) يقول فيها: «إن شاء الله، سأنام، لأن عملًا أدبيًا جديدًا يشهد مخاضه الآن!»

ولكن بيسوا ليس الكاتب البرتغالي الوحيد الذي لا يزال الناس يحيون إرثه بكل حب واحترام. فعندما توفي الشاعر والفنان السريالي ماريو سيزاريني في شهر نوفمبر من عام 2006

خصصت كل الصحف الصادرة في العاصمة لشبونة صفحاتها الأولى وكامل الصفحات الست أو السبع التي تلتها على الأقل للحديث عن حياته وأعماله. ونالت الشاعرة فياما هاس بايس برناداو على الاهتمام نفسه عند وفاتها بعد ذلك ببضعة أشهر. وأينما وجهت ناظريك في لشبونة، تجد أن الشوارع والمنتزهات قد سميت بأسماء روائيين وشعراء وصحفيين؛ كما تنتصب شامخةً تماثيل أبرز الكتَّاب البرتغاليين في منتصف الساحات العامة وعلى جنبات الطرق الرئيسة. وحتى المدن الصغيرة لا تخلو من تماثيل لشعراء محليين أقل شهرة ومكانة.

هناك سبب لهذا التقليد المتوارث من الإعجاب بالأدب؛ سببٌ ذو جذور ثقافية وتاريخية متأصلة، حيث يقوم جزء كبير من الهوية الوطنية البرتغالية على المآثر غير المسبوقة التي أقدمت عليها تلك البلاد من خلال امتطاء صهوة الكشوفات الجغرافية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. فالاكتشافات العظيمة التي أدت لنشوء الإمبراطورية البرتغالية التئمت مع فجر انبثاق أوائل الأعمال الأدبية البرتغالية الحديثة، ولا يقتصر ذلك فحسب على أعمال لويس دي كامويس الذي كان هو ذاته مستكشفًا أيضًا، حيث احتفى عمله الأدبي الرئيس المتمثل بالقصيدة الملحمية اللوسياد باكتشافات فاسكو دي غاما، ولكننا نجد أثر ذلك أيضًا في

المسرحيات التي تموج بالشك التي ألَّفها الكاتب المسرحي جيل فيسنتي. وفي حين تجري تلك المغامرات التي جابت أرجاء الكرة الأرضية في الماضي البعيد، فأنا أعتقد بأن البرتغاليين يعتبرون أن كتَّابهم يتابعون مسيرة المستكشفين وإرثهم، رغم أنه يأخذ الآن منحى آخر؛ فهم مكتشفون لا يشق لهم غبار للإمبراطوريات الداخلية لبني الإنسان.

فلا عجب إذن من احتضان البرتغاليين لأعمال غونزالو تافاريس، التي غالبًا ما تحتفي احتفاءً هزليًا رشيقًا بالحالات الذهنية والفكرية لكتَّاب مشهورين. ويعد كتاب المكتبة أول ما أينع من أعمال تافاريس الأدبية، إذ نشر في عام 2004، وهو تاريخ قريب من تاريخ ظهور أولى روايات سلسلة «الحي». يضم كتاب «المكتبة» في صفحاته زهاء ثلاثمائة قصيدة نثرية قصيرة، تتناول كل قصيدة منها كاتبًا مختلفًا، من الكاتب الأرجنتيني أدولفو بيوي كاساريس إلى الأديب الصيني زانغ كيجيو. ويلجأ تافاريس في كتاب المكتبة لاستخدام أسلوب كتابي يشبه ذلك المستخدم في سلسلة كتاب «الحي»، ويتجلى ذلك من خلال خلق فسحة مكانية يمكن من خلالها لخيال الكاتب الذي تتحدث عنه القصيدة أن يصول ويجول. تشبه تلك القصائد النثرية البذور الصغيرة، وتشبه موضوعاتها الموضوعات التي تناولتها قصص سلسلة

«الحي» الموجودة في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، في حين تُرِكت شخصيات أدبية أخرى مثل ميشيما وفرجينيا وولف (آن لنا أن نفرح لظهور شخصية أدبية نسائية أخيرًا!) وغوغول لتكون إضافات للأجزاء القادمة المتوقَّعة من سلسلة «الحي».

ويبوح لنا كتاب «المكتبة» بمضامينه وكأنه نزهة في الشطآن المتنوعة للتأثير الذي يجمع بين أعمال تافاريس وجوهر مكتبته الشخصية - ولا نقصد المكتبة برفوفها وكتبها، بل تلك المكتبة القابعة داخل رأسه. وهذا هو السر، برأيي، الذي يربط تافاريس ارتباطًا لا تنفصم عراه مع القارئ، السر الذي يموج في العوالم الدائمة الاتساع داخل الحي. ففي كل واحد منا مكتبة داخلية؛ في كل واحد منا ذلك الصخب الداخلي للخيالات المختلفة للكتَّاب الذين نحبهم ونعجب بهم؛ في كل واحد منا تلك المكتبة التي تحتفظ في سراديبها بجبروت العوالم الخيالية لذلك الصنف من الكتاب كلما تقدم بنا العمر وتلاشت معه التفاصيل الدقيقة لكتبنا المفضلة. يبقى جبروت الخيال، إذن، ويتحول إلى حي شخصي بكل ما في الكلمة من معنى. عندما نزور حي تافاريس، بمبانيه وبيوته المبنية من الكتب، فإننا نزور أيضًا نسخة عن ذواتنا.

وقد ورد عن جوزيه ساراماغو، الذي صرَّح ذات مرة بكل خفة ودعابة بأنه يرغب بضرب تافاريس بدافع الغيرة منه، أنه قال، وإنْ

بأسلوب أقل تهديدًا: «لقد اقتحم غونزالو تافاريس المشهد الأدبي البرتغالي مدججًا بخيال أصيل كل الأصالة، وقد تخطَّى به كل الحدود التقليدية للخيال. وأتوقع أنه سيفوز بجائزة نوبل للآداب خلال مدة ثلاثين عامًا، أو ربما قبل ذلك، وأنا على يقين من أن نبوءتي ستتحقق. الشيء الوحيد الذي يؤسفني هو أنني لن أكون هناك لأبارك له فوزه وأعانقه عناق المهنئين».

هذا هو حال الدنيا إذًا، فما من أحد يعلم المخبوء في المستقبل. كل ما نعرفه الآن، للأسف، هو أن ساراماغو، الذي رحل عن عالمنا في عام 2010، لن تتاح له الفرصة لعناق تافاريس وتهنئته بالفوز بجائزة نوبل فيما لو فاز بها. وإنْ حصل وفاز تافاريس بالجائزة، فإن إنجازه المتمثل في النمو السكاني المطرد للحي الذي أنشأه في عمله الأدبي سيكون عاملًا مهمًا في منحه تذكرة سفر لاستلام جائزة نوبل في العاصمة السويدية ستوكهولم.

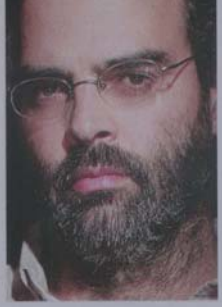

غونزالو تافاريس

السيد كراوس

كافة السادة في هذه السلسلة يستدعون في الذاكرة شخصيات أدبية بارزة. إذ تمارس تلك الشخصيات أدوارها الروائية، إلى حد ما، في نطاق ما نعتقد أننا نعرفه من معلومات عن تلك القامات الأدبية، والأهم من ذلك ما نعرفه عن كتاباتهم. فالسيد كالفينو بالطبع هو النسخة الأدبية عن كاتب الحكايات الإيطالي إتالو كالفينو؛ أما السيد فالِري ففيه تلميح للشاعر والناقد الفرنسي بول فالِري؛ أما السيد جواروز فهو نسخة ما من الشاعر الأرجنتيني روبرتو جواروز؛ والسيد فالْسِر عاشق العزلة (إذْ قد يلاحظ المرء بأن بيته يقع على مسافة بعيدة من المباني السكنية الأخرى الموجودة على خريطة الحي التي رسمتها كاياتو) يمثل روبرت فالْسِر، الكاتب السويسري المأزوم نفسيًا الذي أدمن السير وحيدًا لمسافات طويلة؛ وتعكس قصص السيد كراوس النقمة السياسية واللغوية للكاتب النمساوي كارل كراوس، أما النفس المخمورة للسيد هنري فهي شذرة منبثقة من شخصية الكاتب هنري ميشو الذي ينتمي للسوروياليين الجدد والذي عكف على تجريب شتى أنواع المخدرات أملًا منه في اكتشاف العوالم الداخلية للإنسان. ورغم ما سقناه من إرهاصات لتشابه شخصيات الحي مع شخصيات أدبية حقيقية، فإن كتب سلسلة "الحي" لا تقتصر على إرسال رسالة مباشرة عن تلك الإرهاصات، ولكنها بدلًا من ذلك تفضي بنا إلى مآلات واحتمالات مختلفة -منها الشخصي ومنها الفلسفي- الناتجة عن المعرفة الأساسية بهؤلاء الكتّاب الذين شكّلوا مصدر إلهام لتافاريس.

- فيليب غراهام

ISBN
9 789921 712087

دار الخان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

Info@daralkhan.com
@DarAlkhan_kw